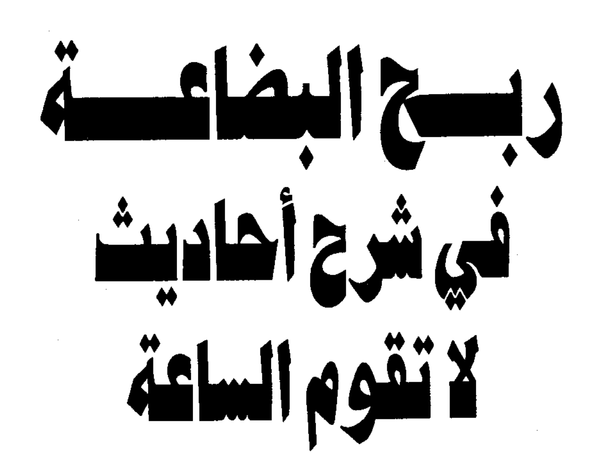


ربح البضاعة في شرح أحاديث لا تقوم الساعة

تأليف

خالد بن عبد الله الزرير

دار القاسم

الرياض ١١٤٤٢ ص. ب ٦٣٧٣

ت/ ٤٠٩٢٠٠٠ فاكس/ ٤٠٣٣١٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار القاسم للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الزرير - خالد عبدالله
ربح البضاعة في شرح أحاديث لا تقوم الساعة/ خالد عبدالله الزرير -
الرياض، ١٤٣١هـ
... ص ؛ ... سم
ردمك: ١ - ٤٧٠ - ٥٣ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨
١ - علامات القيامة ٢ - الحديث - مباحث عامة أ - العنوان
ديوي ٢٤٣ ١٤٣١/٢٠٣

رقم الإيداع: ٢٠٣/١٤٣١
ردمك: ١ - ٤٧٠ - ٥٣ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

الصف والمراجعة والإخراج بدار القاسم

فروع دار القاسم للنشر

جدة. هاتف: ٦٠٢٠٠٠٠ - فاكس: ٦٣٣٣١٩١
الدمام. هاتف: ٨٤٣١٠٠٠ - فاكس: ٨٤١٣٠١١
بريدة. هاتف: ٣٢٦٢٨٨٨ - فاكس: ٣٦٩٢٨٨٨
خميس مشيط. هاتف: ٢٢٢٢٢٦١ - فاكس: ٢٢٢٣٠٥٠

www.dar-algassem.com
sales@dar-algassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.. وبعد:

فإن الحديث عن الساعة وأشراطها مما خص الله - تعالى - به هذه الأمة، فقد جاء الحديث عنها وعن أمورها على لسان الرسول ﷺ، وما سيكون في آخر الزمان من أمور عظام مؤذنة بنهاية هذا العالم وبداية حياة جديدة.

والذي يتأمل هذه الأحاديث التي بين فيها النبي ﷺ أموراً مستقبلية لم تحدث بعد، يجد أنه ربط حدوثها بزمن ما قبل قيام الساعة تحديداً، ومنها ما وقع وانقضى، ومنها ما لم يقع بعد.

وتُعد هذه الأمور الغيبية من العقائد التي لا يتم إيمان المسلم ولا يكمل إلا بالتصديق بها. وهي من أعلام نبوة النبي ﷺ وآيات صدقه، ولما كانت هذه الأمور من العقائد، وتتحدث عن القيامة التي يجب الإيمان بها، ولما كان نظر الإنسان قد لا يعدو هذه الحياة الدنيا وما فيها من متاع زائل فينسى اليوم الآخر ولا يعمل له، جعل الله بين يدي الساعة علامات، وأحداث جسام، وإرهاصات تدل على تحققها وتمهد لها.

ومن المعلوم بداهة أن النبي ﷺ إذا ذكر شيئاً من علامات الساعة، ووقع ذلك الشيء ورأه الناس أمامهم، علموا يقيناً أن الساعة آتية لا ريب فيها، فيعملوا لها، ويستعدوا لذلك اليوم قبل فوات الأوان وانقضاء الأجل، وقد كان الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - يخافون من قيام الساعة، ويسألون النبي ﷺ عن أمورها، وظهر ذلك عندما حدثهم النبي ﷺ عن الدجال حتى ظنوا أنه في طائفة من نخل المدينة، فلما رأى ذلك النبي ﷺ فيهم قال: «ما شأنكم؟» فقالوا: يا رسول الله ذكرت الدجال فخفضت فيه ورفعت، فقال: **«غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه،**

وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله، خليفتي على كل مسلم»[١].

وقد ظهر كثير من أشـراط الساعة، وتحقق ما أخبر به النبي ﷺ، فكل يـوم يزداد المؤمـن إيماناً به، يظهر من دلائل نبوته وآيات صدقه ما يوجب على المسلمين التمسك بهذا الدين الحنيف[٢].

ولذلك أحببت أن أجمع بحثاً خاصّاً بالأحاديث التي ذكر فيها الرسـول ﷺ أحداثاً تحدث قبل قيام الساعة.

فتوفر لدي أحاديث كثيرة منها الصحيح ومنها الضعيف، وعند رجوعي إلى مصادر السـنة الصحيحة كالبخاري ومسلم والسنن والمسانيد اقتصرت على الصحيح منها.

وكان مسـلكي في البحث هو أني اقتصرت علـى بعض الأحاديث مخافة الإطالة، وذكرت المهم منها والصحيح، والتزمت ألا أذكر حديثاً إلا وقد توفر لدي فيه كلام لأهل العلم وشراح الحديث سواءً كان منهم المعاصرون أو السابقون.

وقد واجهتني بعض الصعوبات في البحث عن صحة الأحاديث وشـرح بعض الألفاظ الغريبة التي وردت في سياق الأحاديث، ولكني طلبت العون من الله ـ تعالى ـ فمنه التوفيق والسـداد، ولا أدعي أنني استكملت جميع جوانـب البحث فالكمال لله ـ تعالى ـ، ولكني بذلت جهدي فما كان فيه مـن صـواب فمن عند الله ـ تعالى ـ، وما كان فيه من خطأ فمن نفسـي والشيطان، فأسأل الله أن يغفر لي وهو حسبي ونعم الوكيل.

كتبه:

خالد بن عبد الله الزرير.

١٤٣٠/١٠/١٩ هـ.

Email: Kanz.2008 @windowslive.com

---

(١) صحيح مسلم كتاب الفتن و أشراط الساعة باب ذكر الدجال (١٨/ ٦٣) شرح النووي.

(٢) أشراط الساعة يوسف الوابل صـ ١٠.

الحديث الأول
«نار تخرج من الحجاز تضيء أعناق الإبل ببُصرى»

روى الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ قال: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري عن سعيد بن المسيب أخبرني أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببُصرى»**.

قوله **«تضيء أعناق الإبل ببُصرى»**، قال ابن التين: يعني من آخرها يبلغ ضوؤها إلى الإبل التي تكون ببصرى، وهي من أرض الشام. وأضاء يجيء لازماً ومتعدياً، يقال: ضاءت النار وأضاءت النار غيرها.

بُصرى بضم الموحدة، وسكون المهملة مقصور، بلد بالشام وهي حوران.

قال أبو البقاء: أعناق بالنصب على أن تضيء متعد، والفاعل النار، أي تجعل على أعناق الإبل ضوءاً، ولو روي بالرفع لكان متجهاً أي: تضيء أعناق الإبل به كما جاء في حديث آخر: **«أضاءت له قصور الشام»**.

وقد وردت في هذا الحديث زيادة من وجه آخر أخرجه ابن عدي في الكامل من طريق عمر بن سعيد التنوخي عن ابن شهاب عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن عمر بن الخطاب يرفعه: **«لا تقوم الساعة حتى يسيل واد من أودية الحجاز بالنار تضيء له أعناق الإبل ببُصرى»**.

وعمر ذكره ابن حبان في الثقات، وليّنه ابن عدي والدارقطني.

وهذا ينطبق على النار المذكورة التي ظهرت في المائة السابعة.

وأخرج الطبراني من حديث حذيفة بن أسيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من رومان، أو ركوبة تضيء منها أعناق الإبل ببُصرى»**.

قلت: وركوبة: ثنية صعبة المرتقى في طريق المدينة إلى الشام، مر بها النبي ﷺ في غزوة تبوك، ذكره البكري. وروما لم يذكره، ولعله أراد به (رومة) البئر المعروفة في المدينة، فجمع في هذا الحديث بين النارين، وأن إحداهما تقع قبل قيام الساعة مع جملة الأمور التي أخبر بها الصادق ﷺ، والأخرى هي التي يعقبها قيام الساعة بغير تحلل شيء آخر، وتقديم الثانية على الأولى في الذكر لا يضر والله أعلم.

وهذا الحديث من أعلام نبوة النبي ﷺ وآيات صدقه حيث أخبر بخروج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى. ووقع الأمر كما أخبر النبي ﷺ، وقد ظهرت في منتصف القرن السابع الهجري في عام أربع وخمسين وستمائة، وكانت ناراً عظيمة أفاض العلماء ممن عاصر ظهورها ومن بعدهم في وصفها.

قال النووي: «خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة، وكانت ناراً عظيمة جدّاً من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة، وتواتر العلم بها عند جميع الشام وسائر البلدان، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة».

ونقل ابن كثير أن غير واحد من الأعراب ممن كان بحاضرة بُصرى أنهم شاهدوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار التي ظهرت في أرض الحجاز.

وذكر القرطبي ظهور هذه النار، وأفاض في وصفها في كتابه التذكرة، فذكر أنها رؤيت من مكة ومن جبال بُصرى.

وقال ابن حجر: «والذي ظهر لي أن النار المذكورة هي التي ظهرت بنواحي المدينة، كما فهمه القرطبي وغيره، وهذه النار ليست النار التي تخرج في آخر الزمان تحشر الناس إلى محشرهم»[1].

قال ابن حجر: «كان بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء بعد العتمة

(١) أشراط الساعة: يوسف الوابل، ص ١١٧.

الثالث من جمادى الآخرة من سنة ٦٥٤هـ ، واستمرت إلى ضحى النهار يوم الجمعة، فسكنت».

وظهرت النار بقريظة بطرف الحرة تُرى في صورة البلد العظيم عليها سور محيط، عليها شراشيف وأبراج ومآذن، وترى رجالاً يقودونها لا تمر على جبل إلا دكّته وأذابته.

ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر وأزرق له دوي كدوي الرعد يأخذ الصخور بين يديه ، وينتهي إلى محط الركب العراقي حتى صار كالجبل العظيم، فانتهت النار إلى قرب المدينة، ومع ذلك كان يأتي المدينة نسيم بارد، وشوهد لهذه النار هيجان كهيجان البحر، وقال لي بعض أصحابنا: رأيتها صاعدة في الهواء من نحو خمسة أيام. وسمعت أنها رؤيت من مكة ومن جبال بُصرى.

قال النووي: «تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام».

وقال أبو شامة في ذيل الروضتين: «وردت في أوائل شعبان سنة أربع وخمسين كُتب من المدينة الشريفة فيها شرح أمر عظيم حدث بها فيه تصديق لما في الصحيحين، فذكر هذا الحديث قال: «فأخبرني بعض من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب مقداره أربعة فراسخ، وعرضه أربعة أميال يجري على وجه الأرض، ويخرج منه رماد، وجبال صغار».

وفي كتاب آخر: ظهر ضوؤها إلى أن رأوها بمكة، قال: ولا أقدر أصف عظمها، ولها دوي. قال أبو شامة: ونظم الناس في هذا أشعاراً، ودام أمرها أشهراً، ثم خمدت.

قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ: قال بعضهم فيها أبياتاً:

يا كاشف الضر صفحاً عن جرائمنا

لقد أحاطت بنا يا رب بأساء

نشكو إليك خطوباً لا نطيق لها
حملاً ونحن بها حقّاً أحقاء
زلازل تخشع الصم الصلاب لها
وكيف يقوى على الزلزال شماء
أقام سبعاً يرج الأرض فانصدعت
عن منظر منه عين الشمس عشواء
بحر من النار تجري فوقه سفن
من الهضاب لها في الأرض إرساء
كأنما فوقه الأجبال طافية
موج عليه لفرط البهج وعثاء
ترمي لها شرر كالقصر طائشة
كأنها ديمة تنصب هطلاء
تنشق منها قلوب الصخر إن زفرت
رعباً وترعد مثل السعف أخواء
منها تكاثف في الجو الدخان إلى
أن عادت الشمس وهي دهماء
قد أثرت سفعة في البدر لفحتها
فليلة التم بعد النور ليلاء[١]

قال الإمام ابن كثير عن ظاهرة عجيبة حدثت أثناء خروج هذه النار أعني نار المدينة، وهي أن الشمس والقمر انكسفا، قال ـ رحمه الله ـ في الكتاب الذي كتبه أبو شامة في وصف النار:

«وما أقدر أن أصف لك عظمها وما فيها من الأهوال وأبصرها أهل ينبع وندبوا قاضيهم ابن أسعد، وجاء وعدا إليها، وما أصبح يقدر يصفها من عظمها، وكتب الكتاب يوم الخمس من رجب وهي على حالها والناس منها فائقون، والشمس القمر كاسفان، فنسأل الله العافية»[٢].

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ١٣.
(٢) والله أعلم الكسوف والخسوف الذي عناه ابن كثير أن دخان النار أو البركان حجب نور الشمس والقمر وليس المقصود الكسوف والخسوف الحقيقيان.

وأخبر عن ظاهرة أخرى غريبة، قال أبو شامة: «وصل إلينا في جمادى الآخرة نجابة من العراق، وأخبروا عن بغداد أنهم أصابهم غرق عظيم حتى طفح الماء من أعلى أسوار بغداد إليها، وغرق كثير منها، ودخل الماء دار الخلافة وسط البلد، وانهدمت دار الوزير وثلاثمائة وثلاثون داراً، وانهدم مخزن الخليفة، وهلك من خزانة السلاح شيء كثير، وأشرف الناس على الهلاك، وعادت السفن تدخل إلى وسط البلدة وتخترق أزقة بغداد»[١].

وقد وصف الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ في كتابه البداية والنهاية خبر هذه النار نقلاً عن أبي شامة المقدسي، قال في أحداث سنة أربع وخمسين وستمائة: «فيها كان ظهور النار من أرض الحجاز التي أضاءت لها أعناق الإبل ببُصرى كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه».

وقال أبو شامة: «لما كانت ليلة الأربعاء سنة أربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة النبوية دويّ عظيم، ثم زلزلة عظيمة، رجفت منها الأرض والحيطان والسقوف والأبواب ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور». إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «ووصلت النار إلى الحرة فوقفت بعد ما أشفقنا أن تصل إلينا، ورجعت تسيل في الشرق، فخرج من وسطها سهول وجبال ونيران تأكل الحجارة.» وقال: «فانفجرت من الأرض وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد، ولا ندري ما نفعل، ووقت ما ظهرت دخل أهل المدينة إلى المسجد النبوي مستغفرين تائبين إلى ربهم ـ تعالى ـ، وقد وصفت الحجار بأن لونها أحمر مثل الآنك، فإذا أخمد صار أسود».

قلت: وقد هيأ الله لي أن أزور المدينة، وذهبت للحرة المذكورة ـ الحرة الشرقية كما يسميها أهل المدينة ـ ورأيت أن الطرق المعبدة قد شقتها، وترى

(١) المصدر نفسه.

الحرة عن يمينك وشمالك لمسافة تتجاوز الخمس كيلو مترات، وقال لي سائق الأجرة: إنها في السابق كانت جبال كبيرة، لكن مع ظهور الآلات الحديثة تم تجريف الجبال لغرض شق الطرق.

قال أبو شامة: «وقد خرج الناس من البيوت والصبيان، واجتمعوا كلهم وأخلصوا على الله ـ تعالى ـ».

وغطت حرة النار كلها حتى بقي الناس في مثل ضوء القمر، وبقيت السماء كالعلقة، وأيقن الناس في الهلاك أو العذاب، وبات الناس في تلك الليلة بين مصل وتال للقرآن وراكع وساجد وداع إلى الله ـ تعالى ـ ومستغفر وتائب.

«ولزمت النار مكانها، وتناقص تضاعفها ذلك ولهيبها، وقصد الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظونه، فطرح المكس وأعتق مماليكه كلهم وعبيده، ورد علينا ما لنا تحت يده، وعلى غيرنا، وبقيت تلك النار تلتهب التهاباً، وهي كالجبل العظيم ارتفاعاً، وكالمدينة عرضاً، يخرج منها حصى يصعد في السماء ويهوي فيها، ويخرج منها كالجبل العظيم ناراً ترمي كالرعد، وبقيت كذلك أياماً ثم سالت سيلاناً مع الوادي والحجارة معها تتحرك وتسير، حتى كادت تقرب من حرة العريض، ثم سكنت ووقفت أياماً، ثم عادت ترمي بحجار خلفها وأمامها حتى بنت لها جبلين، ولها عجائب لا أقدر أن أشرحها».

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «والحديث الوارد في أمر هذه النار مخرج في الصحيحين عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة».

وقد وقع في هذه السنة ـ أعني سنة أربع وخمسين وستمائة ـ أخبرني قاض القضاة صدر الدين علي بن أبي القاسم التميمي الحنفي الحاكم بدمشق في بعض الأيام في المذاكرة جرى ذكر هذا الحديث وما كان من

أمر هذه النار في هذه السنةً، فقال: «سمعت رجلاً من الأعراب يخبره والدي ببصرى في تلك الليال أنهم رأوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار التي ظهرت بأرض الحجاز».

وقال ابن الساعي في تلك السنة التي ظهرت فيها النار: «كنت جالساً بين يدي الوزير، فورد عليه كتاب من مدينة رسول الله ﷺ مع واحد يعرف بقيماز العلوي المدني، فناوله الكتاب فقرأه، وهو يتضمن أن مدينة الرسول ﷺ زلزلت حتى ارتج القبر الشريف، وسمع صديد الحديد، وتحركت السلاسل وكانت ترمي بزبد كأنه رؤوس الجبال، ودامت خمسة عشرة يوماً».

قال القاصد: «وجئت ولم تنقطع، بل كانت على حالها، وسأله إلى أي الجهات ترمي؟ قال: إلى جهة الشرق.

وأحضر قيماز المذكور شيئاً من الصخر، وهو كالفحم لوناً وخفة[١].

قال ابن الساعي: «قرأت بخط العدل الأمعاني شيخ حرم المدينة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ـ أن هذه النار التي ظهرت بالحجاز آية عظيمة، وإشارة صحيحة دالة على اقتراب الساعة، فالسعيد من انتهز الفرصة قبل الموت وتدارك أمره بإصلاح حاله مع الله ـ عز وجل ـ».

وهذا الحديث ـ أي حديث نار المدينة ـ غير الحديث الذي ذكره الرسول ﷺ عن النار التي تخرج في آخر الزمان من قعر عدن.

فقد صح الحديث في النار التي تخرج من عدن وتحشر الناس. ففي صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري ـ رضي الله عنه ـ قال: طلع علينا النبي ﷺ ونحن نتذاكر، فقال: «ما تذكرون؟» قلنا: نذكر الساعة، فقال: «**إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: فذكر الدخان، والدجال، والدابة،**

(١) قلت: وقد أحضرت من هذه الحرة صخرة صغيرة وكانت مثل الفحم خفة ولوناً

وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر».

وأما النار التي تخرج من الحجاز فلم يذكر فيها الحشر، ولكنها من أشراط الساعة، وقد حملها بعض العلماء على النار التي خرجت في القرن السابع الهجري، والحديث مخرج في الصحيحين من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

قال النووي في شرح مسلم: «هذه النار الخارجة من قعر عدن واليمن هي الحاشرة للناس كما صرح به الحديث، أما قوله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز**» فقد جعلها القاضي عياض حاشرة».

قال: «ولعلهما ناران تجتمعان لحشر الناس».

قال: «أو يكون ابتداء خروجها من اليمن، ويكون ظهورها وكثرة قوتها في الحجاز».

هذا قول القاضي، وليس في الحديث أن نار الحجاز متعلقة بالحشر، بل هي آية من أشراط الساعة مستقلة، وقد خرجت النار في زماننا وكانت ناراً عظيمة جدّاً من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة، وتواتر العلم بها عند جميع الشام وسائر البلدان.

وأما حشر باقي الناس، فقد دل عليه ما ورد في صحيح البخاري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأتاه يسأله عن أشياء، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «**أخبرني به جبريل آنفاً**». قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة. قال: «**أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق**

إلى المغرب، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد» .

قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله .

والظاهر أن ابتداء خروج النار من قعر عدن كما في حديث مسلم، فإذا خرجت انتشرت في الأرض كلها، وحينئذ يقع حشرها الناس من المشرق إلى المغرب كما في حديث البخاري .

قال ابن حجر في الفتح عند حديث البخاري السابق: «قال القرطبي: الحشر الجمع، وهو أربعة: حشران في الدنيا، وحشران في الآخرة، فالذي بالدنيا أحدهما المذكور في سورة الحشر من قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ [الحشر: ٢]، والثاني: الحشر المذكور في أشراط الساعة الذي أخرجه مسلم في حديث حذيفة أن الساعة لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات. وفي حديث ابن عمر عند أحمد وأبي يعلى مرفوعاً: «**تخرج نار من حضر موت فتسوق الناس...**» الحديث وفيه: فما تأمرنا قال: «**عليكم بالشام**» .

وفي لفظ آخر: «**نار تخرج من قعر عدن ترحل الناس إلى المحشر**» .

وفي حديث عبد الله بن عمر عند الحاكم: «**تبعث نار على أهل المشرق فتحشرهم إلى المغرب، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، تسوقهم سوق الجمل الكسير**» .

وقد أشكل الجمع بين هذه الأخبار. وظهر لي في وجه الجمع أن كونها تخرج من قعر عدن لا ينافي حشرها الناس من المشرق إلى المغرب، وذلك من ابتداء خروجها من قعر عدن، فإذا خرجت انتشرت في الأرض كلها، والمراد بقوله تحشر الناس من المشرق إلى المغرب إرادة تعميم لا خصوص المشرق والمغرب، أو أنها بعد الانتشار أول ما تحشر أهل المشرق.

قال العلماء: ولا يمنع انتشار النار في الأرض وجود البحار، فإن البحار يوم القيامة تنفجر ناراً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].

قال الدكتور زغلول النجار في معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]: «إن من وراء الماء ناراً، وذلك حقيقة علمية نطق بها العلم الحديث، حيث اكتشف أن تحت أطباق المحيطات ناراً تشتعل».

وفي الحديث ـ أعني حديث لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ـ إشارة علمية دقيقة إلى حقيقة أرض الحجاز التي لم تظهر إلا مؤخراً، فعندما رسمت الخريطة الجيولوجية لأرض الجزيرة العربية كان من نتائج ذلك انتشار الطفوح البركانية على طول الساحل الغربي لجزيرة العرب من عدن جنوباً إلى المرتفعات السورية شمالاً، عبر كل من الحجاز و الأردن وفلسطين، مغطية مساحة من تلك الطفوح تقدر بحوالي مائة وثمانين كيلو متر مربع، وكونه واحد من أقاليم النشاط البركاني الحديث في العالم، وتقع نصف هذه المساحة تقريباً في أرض الحجاز، وتقع المدينة النبوية على صاحبها ـ أفضل الصلاة والسلام ـ بين حرتين: حرّة رهط في الجنوب، وحرّة خيبر في الشمال، ويوجد في حرة رهط وحدها أكثر من سبعمائة فوهة بركانية، ويعتبر الجزء الشمالي من حرة رهط الذي يقع جنوب المدينة من أكثر أجزاء تلك الحرة نشاطاً، لأنه شهد أكثر من ثلاث عشرة ثورة بركانية خلال خمسة آلاف سنة ماضية.

وقد كونت الثورة البركانية الأخيرة (٦٥٤هـ ـ ١٢٥٦م) مخاريط بركانية دفعت بطفوها لمسافة زادت على ثلاث وعشرين كم من الشمال إلى الجنوب، امتدت حتى الطرف الجنوبي لموقع مطار المدينة الحالي، ثم تحولت إلى الشمال، لطفاً بأهل المدينة وكرامة لساكنها بعد أن أصاب الناس كثير من الذعر والخوف، ولقد تم تسجيل أكثر من ٣٠٠ هزة أرضية خفيفة منذ

السنوات الماضية، منذ سنة ١٤٢٠ هـ مما يوحي بتحرك الصهارة الصخرية تحت تلك المخاريط، ومما يهدد بإمكانية انفجار ثورة بركانية عارمة في أي لحظة من الآن.

وتشير الدراسات البركانية التي كونت الحرة أنها قد بدأت منذ أمد بعيد جدّاً، وأنها بتتابع عدد من الثورات البركانية التي تخللها فترات من الهدوء النسبي، ونحن اليوم في ظل هذا الهدوء النسبي، معنى هذا الكلام أن المنطقة مقبلة حتماً على ثورات بركانية تندفع فيها حمم هائلة وصدوع، فتملأ المنطقة ناراً ونوراً تصديقاً لنبوءة النبي ﷺ، والتي قال فيها: **«لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببُصرى»**.

وقد تم تسجيل زلزالين كبيرين وقعا في حرة خيبر، أحدهما سنة ٦٥٤ هـ، وقد سبقت الزلزال الأخير أصوات انفجارات عالية، تلتها ثورة بركانية كبيرة، وصاحبتها هزات أرضية استمرت بمعدل عشر هزات يومياً، لمدة ستة أيام قُدّر أكبرها بخمس درجات ونصف الدرجة بمقياس رختر، وقد كونت هذه الثورة البركانية عدداً من المخاريط البركانية، ودفعت بملايين الأطنان من الحمم باتجاه الجنوب، ولا تزال تلك المخاريط تتعرض لأعداد كبيرة من الرجفات الاهتزازية الخفيفة التي توحي أن الصهارة الصخرية تحت المخروط البركاني لا تزال نشطة، مما يؤكد حتمية وقوع ثورات بركانية عارمة تخرج من أرض الحجاز في المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ـ.

إن سبب النشاط الزلزالي حركة الصهارة البركانية التي في باطن الأرض الموجودة على بعد ٧ كيلومترات من باطن الأرض نتيجة شقوق أرضية.

وذلك تصديقاً لنبوة محمد ﷺ[١].

---

(١) كتاب الإعجاز العلمي في السنة النبوية جزء (١) د ـ زغلول النجار ص ٧٧.

قلت: وقد أخبـــر النبي ﷺ أن الدجال تطأ قدمه كل مكان في الأرض إلا مكـــة والمدينة، فهما محرمتان عليه، على أبوابهما ملائكة تمنعه، فينزل بالسبخة، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات يخرج منها المنافقون.

وفي هذا الحديث دلالة واضحة على أن الزلازل سوف تصيب المدينة في آخر الزمان، فالله أعلم وأحكم.

قلت: وسبب النشاط الزلزالي الذي حدث مؤخراً في المدينة المنورة وفي منطقة العيص تحديداً هو تحرك الصهارة البركانية الموجودة على بعد ســبعة كيلو مترات في باطن الأرض.

الحديث الثاني
«حسر الفرات عن جبل من ذهب»

روى البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتتل الناس عليه، فيُقتل من كل مائة تسع وتسعون، ويقول كل رجل منهم: لعلي أكون أنا الذي أنجو»**.

والحديث رواه البخاري في كتابه: كتاب الفتن، باب خروج النار، ومسلم في كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى ينحسر الفرات على جبل من ذهب، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وعبد الرزاق في مصنفه عن أبي هريرة، والإمام أحمد في المسند عن معمر.

ورواه الإمام ابن عمر الداني في السنن، والإمام الحافظ نعيم بن حماد في الفتن، وابن كثير في كتاب النهاية في الفتن والملاحم.

وفي رواية للبخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً»**. قال عقبة: وحدثنا عبيد الله أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ (مثله) إلا أنه قال: **«يحسر عن جبل من ذهب»**.

وعن عبيد الله بن الحارث بن نوفل ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت واقفاً مع أبي بن كعب فقال: لا يزال الناس تختلف أعناقهم في طلب الدنيا. قلت: أجل، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يوشك الفرات أن ينحسر عن جبل من ذهب، فإذا سمع به الناس ساروا إليه، فيقول من عنده: لئن تركنا الناس يأخذون منه ليذهبن به كله. قال: فيقتتلون عليه، فيقتل من كل مائة تسع**

وتسعون، فيقول كل رجل منهم: لعلي أكون أنا أنجو».

وفي رواية قال: قال رسول الله ﷺ: **«يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب فمن حضره فلا يأخذ منه شيئًا»**.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تنجلي الدنيا حتى ينجلي فراتكم عن جزيرة من ذهب فيقتتلون عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون»** [رواه حنبل بن إسحاق في كتابه الفتن بسند صحيح].

والفرات: هو بالضم ثم التخفيف وآخره تاء مثناه من فوق. والفرات في أصل كلام العرب: أعذب المياه، ومخرج الفرات فيما زعموا من أرمينية، ثم من قاليقلار قرب خلاط، ويدور بتلك الجبال حتى يدخل أرض الروم ويصب فيها أنهاراً صغاراً، ثم يمر بالرقة، ثم يصير أنهاراً لتسقي زروع الواد بالعراق، ويلتقي بدجلة قرب واسط، فيصيران نهراً واحداً عظيماً يصب في بحر الهند[1].

قال الإمام النووي في معنى انحسار الفرات: «ومعنى انحساره انكشافه لذهاب مائه، وقد يكون بسبب تحول مجراه، فإن هذا الكنز أو هذا الجبل مطمور بالتراب، وهو غير معروف، فإذا تحول مجرى النهر بسبب من الأسباب، ومر قريباً من هذا الجبل كشفه، والله أعلم بالصواب»[2].

قال الحافظ ابن حجر عن سبب تسميته بالكنز: «باعتبار حاله قبل أن ينكشف، وتسميته جبلاً للإشارة إلى كثرته»[3].

أما معنى أن يقتتل عليه الناس فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ولا ينجو إلا واحد، الظاهر من معنى هذا الحديث أن القتال يقع بين المسلمين أنفسهم،

---

(١) انظر معجم البلدان ٤ ـ ٢٤١ ـ ٢٤٢ـ.

(٢) شرح صحيح مسلم (١٨ ـ ٨٩)

(٣) فتح الباري١٣/١٨٨.

لأن القتال مع أعدائهم اليهود والنصارى وغيرهم يسمى ملاحم.

وقد اختلف الأئمة في تحديد زمن حدوث ذلك، فذهب الإمام البخاري أنه يقع مع خروج النار، ويظهر ذلك من صنيعه إذ أدخل حديث حسر الفرات تحت باب خروج النار.

فأورد حديث أبي هريرة وحارثة بن وهب، ولفظ حديث حارثة هو: «**تصدقوا، فسيأتي عليكم زمان يمشي الرجل بصدقته فيقول الذي يأتيه بها: لو جئت بها بالأمس لقبلتها فأما الآن فلا حاجة لي بها فلا يجد من يقبلها**».

وقد أخبر النبي ﷺ أن الأرض تقيء كنوزها فلا يقبلها أحد، ومن ثم يؤخذ السبب في عدم قبول الناس ما يعرض عليهم من الأموال، وكذلك سبب النهي عن أخذ شيء مما يحسر عنه الفرات، وهو انشغالهم بأمر الحشر، بحيث لا يلتفت أحد منهم إلى المال، بل يقصد أن يتخفف منه ما استطاع[(١)].

وذهب الحليمي في المنهاج في شعب الإيمان إلى أن انحسار الفرات يقع في زمن عيسى ـ عليه السلام ـ.

ثم قال: «فيشتبه أن يكون هذا الزمان الذي أخبر النبي ﷺ أن المال يفيض فيه فلا يقبله أحد، ولعل سبب هذا الفيض العظيم هو ذلك الجبل مع ما يغنمه المسلمون من أموال».

وقد ذكر ذلك القرطبي، وأقره الحليمي على ذلك في كتابه التذكرة.

وهناك حديث يؤيد هذا القول، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً وفيه: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن يتنزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً**» إلى أن قال: «**ويفيض المال حتى لا يقبله أحد**»[(٢)].

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٨١ ـ ٨٢ .

(٢) البخاري كتاب الأنبياء باب نزول عيسى ـ عليه السلام ـ.

أما ابن حجر ـ رحمه الله ـ فإنه لم يحدد لانحسار الفرات زمناً معيناً، لكنه ذكر ما ذهب إليه البخاري أنه يقع عند الحشر، وذلك أثناء تعرضه لبيان الحكمة التي لأجلها نهى النبي ﷺ عن الأخذ منه.

وقد عد ذلك ـ أي انحسار الفرات عن جبل من ذهب ـ صاحب الإشاعة من الأمارات التي تدل على خروج المهدي[١].

والذي دفعه إلى القول بذلك ما رواه ابن ماجه من حديث ثوبان مرفوعاً: «**يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة**»، ثم ذكر الحديث في المهدي.

فإن كان المراد بالكنز الذي في حديث أبي هريرة دل على أنه إنما يقع عند ظهور المهدي قبل نزول عيسى وخروج النار، ولكن ليس هناك ما يعني ذلك[٢].

ويبدو والله أعلم أن الأنسب حمل هذه الأحاديث على محمل واحد، وهو أن ذلك يقع بعد نزول عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ، حين تخرج الأرض بركتها حتى تشبع الرمانة الواحدة الفئام من الناس، كما جاء من حديث النواس[٣].

قلت: والأنسب ـ والله أعلم ـ حمل ذلك ـ أي انحسار الفرات عن جبل من ذهب ـ على أنه حدث يقع قبل قيام الساعة دون تحديد زمن محدد، ينطبق على كل حديث ربط فيه النبي ﷺ ما سيقع قبل قيامها، ومن ذلك منه ما هو متقدم حدوثه مثل خروج نار من أرض الحجاز، ومنه ما لم يحدث كانحسار الجبل عن ذهب وغيره من الأحاديث التي هي موضوع بحثنا هذا.

---

(١) الإشاعة ص ٩١.

(٢) فتح الباري ١٣ ـ٨١.

(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٥٠).

وكل هذه الأخبار السابقة واللاحقة تدل على نبوة النبي ﷺ وأنه مرسل من رب العالمين.

أما الحكمة التي من أجلها ورد النهي عن الأخذ من ذلك الجبل الذي يحسر عنه الفرات، فقد ذكر العلماء في بيان الحكمة عدة أسباب منها:

(١) أن الأخذ من الذهب يُعدّ من الركون إلى الدنيا، والاستكثار منه في ذلك الوقت يُعدّ من الجهل والاغترار.

(٢) أن النهي عن أخذه لما ينشأ عنه من الفتنة والاقتتال عليه.

(٣) وأخذه في ذلك الوقت لن يُبارك له فيه، ولن يجد من يخرج حق الله إليه، ولن يوفق بالبركة من الله ـ تعالى ـ فيه، فكان الإعراض عن الأخذ منه أولى. ذكره الحليمي في المنهاج (١/ ٤٣٠).

(٤) إنما نهي عن الأخذ منه لأجل أنه للمسلمين، فلا يؤخذ إلا بحقه. ذكره ابن التين وقال مثل ما حكى الحافظ ابن حجر قال: من أخذه وكثر المال ندم على أخذه مالا ينفعه.

(٥) واختار الإمام البخاري القول الأول، إذ أورد هذا الحديث تحت باب خروج النار مما يوحي بالنهي عن الأخذ منه.

وذهب القرطبي إلى اختيار القول الثاني، وقال: فهو الذي يدل عليه الحديث[1].

كذلك ذهب إلى اختياره الحافظ ابن حجر، واستدل بحديث أبي بن كعب مرفوعاً: «**يوشك أن يحسر الفرات عن جبل من ذهب**» وذكر الحديث.

وبهذا الحديث أبطل ما ذهب إليه ابن التين، وقال: إنما يتم ما زعم من الكساد، ولو اقتسمه الناس بينهم بالسوية لوسعهم كلهم أجمعين، فحينئذ تبطل الرغبة فيه.

---

(١) التذكرة للقرطبي ص ٧٥٠.

وأما إذا حواه قوم فحال من لم يحصل له منه شيء باق على حاله، وعقب على القول أن النهي ورد لكونه يقع مع خروج النار.

فقال: ولا مانع أن يكون عند خروج الناس للحشر، ولكن ليس السبب في النهي عن الأخذ منه والله أعلم[1].

وليس المقصود بهذا الجبل من ذهب (النفط أو البترول الأسود) كما يرى ذلك أبو عبية في تعليقه على النهاية ـ الفتن والملاحم لابن كثير ـ وذلك من وجوه:

(١) أن النص جاء فيه جبل من ذهب، والبترول ليس بذهب على الحقيقة، فإن الذهب هو المعدن المعروف.

(٢) أن النبي ﷺ أخبر أن ماء النهر ينحسر عن جبل من ذهب فيراه الناس، والنفط أو البترول يستخرج من باطن الأرض بالآلات من مسافات بعيدة.

(٣) أن النبي ﷺ خص الفرات بهذا دون غيره من البحار والأنهار، والنفط نراه يستخرج من البحار كما يستخرج من الأرض وفي أماكن كثيرة متعددة.

(٤) أن النبي ﷺ أخبر أن الناس سيقتتلون عند هذا الكنز، ولم يحصل أنهم اقتتلوا عند خروج النفط من الفرات وغيره، بل إن النبي ﷺ نهى من حضر هذا الكنز أن يأخذ منه شيئاً، كما في الرواية الأخرى عن أبي بن كعب قال: «لا تزال الناس مختلفة أعناقهم في طلب الدنيا» وفي الحديث إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يوشك الفرات أن يحسر عن جبل من ذهب فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً**»، ومن حمله على النفط فإنه يلزمه على قوله هذا النهي عن الأخذ من النفط، ولم يقل به أحد، وقد رجح الحافظ بن حجر أن سبب المنع من الأخذ من هذا الذهب لما ينشأ عن أخذه من الفتنة

(١) الفتح ١٣/ ٨١١ .

والقتال عليه[1].

وقد فسر البعض أن الحرب الأمريكية في عصرنا هذا على العراق هي بداية ما ذكر في حديث انحسار الفرات عن جبل من ذهب، وأن الفرات سينحسر بعد انتهاء الحرب الأمريكية على العراق، وهذا لا دليل عليه من الشرع، وخاصة أن كثيراً من العلماء يرى أن هذا يحدث في آخر الزمان، بل ومن العلامات الكبرى للساعة، وكما ادعى (سعيد أيوب) صاحب كتاب المسيح الدجال أن المهدي المنتظر هو صدام حسين، وتارةً أنه السفياني، وكل هذا يحتاج إلى دليل ولا دليل عليه[2].

قلت: إن الحديث عن الأمور الغيبية من الأمور التوقيفية التي لا يجوز الاجتهاد فيها، بل هي متعلقة بالكتاب والسنة الصحيحة.

ومما يشير إليه الحديث أنه يسبق انحسار الفرات حدوث حالة من الجفاف تؤدي إلى هذا الانحسار، وعللت ذلك أنه نتيجة لسياسات الاحتكار للموارد المائية التي تنتهجها الدول المجاورة لنهري دجلة والفرات مثل إيران وتركيا، إضافة إلى حالة انحسار تساقط الأمطار غير المعتادة التي شهدها فصل الشتاء.

وكشف البيان الحكومي عن انخفاض إجمالي لمنسوب المياه، وهو ما سيلحق أضراراً فادحة بسبل عيش المزارعين مما له أثر على البلاد بشكل عام.

ونظراً لطبيعة العلاقات التي تسود بين دول الجوار فإن العامل المائي وحاجته وندرته مرتبط بالبعد السياسي، إذ أضحى يوظف في خدمة الأغراض والأهداف والنفوذ والسيطرة، وهنا نذكر ما تحدث به الكاتب الأمريكي جون كيلي عن حرب المياه في المنطقة قائلاً: «إن الماء ليس

(١) أشراط الساعة ليوسف بن عبد الله الوابل.

(٢) انظر كتاب فقه أشراط الساعة لمحمد إسماعيل المقدم.

ضرورياً للحياة، بل هو الحياة نفسها».

هـذه الملاحظـة من قبـل الكاتب توضح أمراً أساسـياً مفـاده أن الماء والنفط اشـتركا بالضرورة، فبعد نضوب النفط من المحتمل أن يسـبب الماء الحرب(١).

قلت: والحديـث عن حرب المياه ليس له علاقة وثيقة بالحرب على كنز الفـرات، فعندما ينضب ماء الفرات يكون القتـال على كنزه نتيجة حتمية لذهاب مائه.

وتعرف الأزمـة المائية بأنها خلل في التوازن بين المـوارد المائية المتجددة والمتاحـة والطلب المتزايد عليها، والذي يتمثـل بظهور عجز بالميزان المائي الذي يتزايد باستمرار(٢).

وما الحصار الاقتصادي الذي فرض على العراق من قبل الغرب والعجم إلا بداية لأحداث كثيرة وعظيمة سـوف تتوالى على العراق قبل انحسـار الفرات والله أعلم.

وقد أشـار إلى شـيء من ذلك النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام مسـلم ـ رحمه الله تعالى ـ أن أبا نضـرة قال: كنان عند جابر بن عبدالله فقال: «يوشـك أهل العراق أن لا يجبى إليهم قفيز ولا درهم»، قلنا: من أين ذاك؟ قال: «من قبل العجم، يمنعون ذاك». ثم قال: «يوشك أهل الشام أن لا يجبـى إليهم دينار ولا مدى»، قلنا: مـن أين ذاك؟ قال: «من قبل الروم». ثم سـكت هنية ثم قال: قال رسول الله ﷺ: **«يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثياً لا يعده عدداً»**.

---

(١) ذكر زكي يماني وزير البترول السعودي السابق في محاضرة له بثت على قناة الجزيرة في القاهرة أن مؤشرات نضوب النفط أصبحت ظاهرة للعيان.

(٢) جريدة الاتحاد العراقية مقال بعنوان أزمة المياه في العراق لنبراس المعموري.

قال النووي ـ رحمه الله تعالى ـ: أما القفيز فمكيال معروف لأهل العراق.

قال الأزهري: هو ثمانية مكاكيك والمكوك صاع ونصف، وهو خمسة كليجات، وأما المدي بضم الميم على وزن فُعل هو مكيال معروف لأهل الشام.

وفي معنى (منعت العراق) وغيرها قولان مشهوران: أحدهما: لإسلامهم فتسقط عنهم الجزية، وهذا قد وجد، والثاني: وهو الأشهر أن العجم والروم يستولون على البلاد في آخر الزمان، فيمنعون حصول ذلك للمسلمين، وقد روى مسلم هذا بعد هذا بوريقات عن جابر قال: «يوشك ألا يجيء إليهم بقفيز ولا درهم»، قلنا: من أين ذلك؟ قال: «**من قبل العجم يمنعون ذاك، وذكر منع الروم ذلك بالشام**»، وهذا وجد في زماننا في العراق وهو الآن موجود، وقيل: لأنهم يرتدون في آخر الزمان فيمنعون مالزمهم من الزكاة[1].

واليوم نرى أثر هذا الحصار الاقتصادي الذي فرض على العراق من قبل العجم أجمعين، ومن قبل الروم، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال الشيخ حمود التويجري ـ رحمه الله ـ: «والذي يظهر لي في معنى قوله «**منعت العراق درهمها**»، أن ذلك إلى ما صار إليه الأمر في زماننا وقبله من الأزمان من استيلاء العجم ومن الإفرنج وغيرهم على هذه الأمصار، حتى صار أهل الذمة أقوى من المسلمين وأعظم شوكة».

وعن قيس بن أبي حازم قال: «خرج حذيفة بظهر الكوفة ومعه رجل فالتفت إلى جانب الفرات فقال لصاحبه: كيف أنتم يوم تراهم يخرجون أو يخرجون منها لا يذوقون منها قطرة؟ قال الرجل: أتظن ذلك يا أبا عبد الله؟ قال ما أظن ذلك ولكن أعلمه» رواه الحاكم في مستدركه وقال:

(١) صحيح مسلم شرح النووي ١٧ـ ١٨ كتاب الفتن وأشراط الساعة ص ٢٠.

صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في تلخيصه.

وفي حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «**يوشك أن تطلبوا في قراكم هذه طسئاً من ماء فلا تجدونه، ينزوي كل ماء إلى عنصره، فيكون في الشام بقية المؤمنين والماء**» [رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي][1].

قال الشيخ حمود التويجري ـ رحمه الله ـ بعد ما ذكر هذه الآثار: وهذا الأثر له حكم المرفوع؛ لأن الأمور الغيبية لا مجال للرأي فيها، وأنها تقال عن توقيف.

والحديث عن الغيوب المستقبلية باعتبار ما فيها خرق للعادة من أهم دلائل النبوة، حيث إنها تتضمن تحدياً لعقول البشر أجمعين، فهذه الأمور لا تدرك بالعقل، ولا يمكن معرفة كنهها على الحقيقة إلا من خلال الوحي الصادق إلى الله ورسوله ﷺ وقد صدرت منه لا على أنها توقعات تعتمد على مقدمات تؤدي إلى نتائجها، وإنما هي حديث قاطع عن تفاصيل المستقبل المجهول.

حديث لا يخرمه المستقبل، ولا في جزء من أجزائه، والأمثلة على إخباره بأخبار مستقبلية كثيرة لا تحصى، فقد بشر عثمان ـ رضي الله عنه ـ بالجنة على بلوى تصيبه.

وأخبر عمار ـ رضي الله عنه ـ أنه تقتله الفئة الباغية، وأمر أبا ذر ـ رضي الله عنه ـ أن يعتزل الفتنة ولا يقاتل حتى ولو قتل، وكان حذيفة ـ رضي الله عنه ـ يسأله عن الشر مخافة أن يدركه، ونهى المسلمين عن أخذ شيء من جبل الذهب الذي ينحسر عنه الفرات كما في حديثنا هذا، وبصر أمته بفتنة الدجال، وغير ذلك[2]. والله أعلم بالصواب.

---

(١) إتحاف الجماعة للشيخ حمود التويجري ـ رحمه الله ـ جـ٢.

(٢) فقه أشراط الساعة للدكتور محمد إسماعيل المقدم.

الحديث الثالث
«قتال المسلمين لليهود في آخر الزمان»

قال البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ: حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم هذا اليهودي ورائي فاقتله»**.

ولفظ مسلم ـ رحمه الله ـ: **«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»**.

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«لتقاتلن اليهود فتسلطون عليهم، حتى يقول الحجر: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فاقتله»** [رواه الإمام أحمد والشيخان والترمذي].

قال ابن حجر في فتح الباري: المراد بقتال اليهود وقوع ذلك إذا خرج الدجال ونزول عيسى.

وكما وقع صريحاً في حديث أبي أمامة في قصة خروج الدجال ونزول عيسى وفيه: **«وراء الدجال سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلى، فيدركه عيسى عند باب لد فيقتله، وينهزم اليهود فلا يبقى شيء مما يتوارى به اليهود إلا أنطق الله ذلك الشيء، فقال: يا عبد الله ـ للمسلم ـ هذا يهودي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجرهم»** أخرجه ابن ماجه مطولاً، وأخرجه ابن مندة في كتاب الإيمان من حديث حذيفة بإسناد صحيح[1].

---

(١) فتح الباري ٦/ ٦١٠.

وفي الحديث ظهور الآيات قرب قيام الساعة من كلام الجماد من شجر وحجر، وظاهره أن ذلك ينطق حقيقة ويحتمل المجاز، ويكون المراد أنهم لا يفيدهم الاختباء، والأول أولى[١].

قلت: أما قوله إن ذلك ينطق حقيقة ويحتمل المجاز فيه دلالة واضحة أن الله ـ تعالى ـ القادر على كل شيء، والذي أنطق كل شيء ينطق الشجر والحجر والدواب والسوط، كل ذلك كرامة للمؤمنين في ذلك الزمان الذين هم أهل لهذه الكرامة.

وقال الشيخ يوسف الوابل: «فإن استثناء شجر الغرقد من الجمادات بكونها لا تخبر عن اليهود لأنها من شجرهم، يدل على أنه ينطق حقيقة، ولو كان المراد بنطق الجمادات المجاز لما كان لهذا الاستثناء معنى».

قال النووي: الغرقد: نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس، وهناك يكون قتل الدجال واليهود.

وقال ابن حنيفة الدينوري: إذا عظمت العوسجة صارت غرقدة.

والغرقد أو الغردق اسم لجنس من نباتات تنمو في المناطق الجافة في مناطق مختلفة من العالم، وتتميز بقدرتها على تحمل نقص المياه وملوحتها.

وفي التراث الديني: ربما بسبب عدم فائدة ثمارها ظاهرياً، وضررها للإنسان والماشية ونموها في الأراضي الجافة المالحة التي لا تصلح للزراعة، فقد كانت شجرة الغرقد في عقل إنسان الشرق الأدنى العتيق مؤشراً على الشر والضلال، ورمزاً لقوى الكون الشريرة، ويتمثل ذلك في ذكرها في التراث الديني الإسلامي واليهودي بشكل متماثل الدلالة، وإن اختلف شكلاً، وقد ذكر الغرقد في التوراة في سفر القضاة في الإصحاح التاسع باعتباره العوسج في الترجمة العربية[٢].

---

(١) انظر موسوعة أحاديث الفتن وأشراط الساعة ص ٦٤٤.

(٢) الموسوعة الحرة ويكيبيديا الفتن.

قال الشيخ حمود التويجري ـ رحمه الله تعالى ـ: «في كلام الجماد من شجر وحجر لا ينبغي أن يقال فيه باحتمال المجاز، لا سيما وقد صرح في حديث أبي أمامة بأن الجمادات والدواب تنطق بالدلالة على اليهود، وهذا ينفي احتمال المجاز. وصرح أيضاً في حديث سمرة بأن الجمادات تنادي المسلمين وتدلهم على اليهود».

واحتمال المجاز بمحمل كلام الجمادات وندائها على المجاز ينفي وجود المعجزة في قتال اليهود في آخر الزمان.

ويقتضي التسوية بينهم وبين غيرهم من أصناف الكفار الذين قاتلهم المسلمون وظهروا عليهم. إذ لا بد أن يختبئ المختبئ منهم بالأشجار والأحجار، ومع هذا لم يرد في أحد منهم مثل ما ورد في اليهود، فعلم اختصاص قتال اليهود بهذه الآية، وأن الجمادات تنطق حقيقة بنداء المسلمين ودلالتهم على اليهود.

وقال الشيخ ـ رحمه الله ـ: «ونظير ذلك قوله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس، وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده»** [رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري].

وتكليم السباع للإنس، وتكليم العذبة والشراك والفخذ مثل نداء الشجر والحجر بالدلالة على اليهود، وذلك كله على تحقيقه لا على المجاز، والله أعلم.

قال الحافظ في الفتح: «وفيه أن الإسلام يبقى إلى يوم القيامة».

وفي قوله ﷺ: «**تقاتلكم اليهود**» جواز مخاطبة الشخص، والمراد من هو منه بسبيل، لأن الخطاب كان للصحابة، والمراد من يأتي بعدهم بدهر طويل، لكن لما كانوا مشتركين معهم في أصل الإيمان ناسب أن يخاطبوا بذلك.

وفي حديث أبـي أمامة الطويل قال: خطبنا رسـول الله ﷺ، فكانت خطبته حديثاً حدثناه عن الدجال. فقالت أم شـريك: يا رسول الله، فأين العـرب يومئذ؟ قال: «**هم قليـل وجلهم ببيت المقـدس. وإمامهم رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى بن مريم، فرجع ذلك الإمام ينكص يمشـي القهقرى ليتقدم عيسـى يصلي بالناس، فيضع عيسـى يده بين كتفيـه ثم يقول له: تقدم فصل فإنها لك أقيمـت. فيصلي بهم إمامهم، فإذا انصرف قال عيسـى ـ عليه السـلام ـ: افتحوا الباب، فيُفتح ووراءه الدجال معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سـيف محلى وسـاج، فإذا نظر إليه الدجال؛ ذاب كما يذوب الملح في الماء، وينطلق هارباً. ويقول عيسى ـ عليه السلام ـ: إن لي فيك ضربة لن تسبقني بها، فيدركه عند باب اللد الشـرقي، فيقتله فيهزم الله اليهود، فلا يبقى شيء مما خلقه الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء، لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة إلا الغرقدة، فإنها من شـجرهم. وهذه الجمادات لا تنطق إلا قول: يا عبدالله المسـلم هذا يهودي فتعال فاقتله**» [رواه ابن ماجه].

وعن ثعلبة العبدي من أهل البصرة قال: شـهدت يوماً خطبة لسمرة بن جنـدب ـ رضـي الله عنه ـ، فذكر في خطبته حديثاً عن رسـول الله ﷺ فقـال: بينا أنا وغلام من الأنصار نرمي في عرضين لنا، فذكر الحديث في كسـوف الشـمس وصلاة النبي ﷺ بهم، وخطبته بعد الصلاة، وإخباره بخروج الدجال، وفيه: «**وإنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم وبيت المقدس، وإنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس، فيزلزلون زلزالاً شـديداً، ثم يهلكه الله ـ تبارك وتعالـى ـ وجنوده حتى إن جذر الحائط وأصل الشـجرة لينادي: يا مؤمن، أو قال يا مسـلم، هذا يهودي أو قال هذا كافر فتعـال فاقتله**» رواه الإمام أحمد وأبو يعلى وابـن خزيمة والطبراني في الكبير وابـن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في تلخيصه.

وعن سـمرة أيضاً ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**لا تقوم السـاعة حتى يدل**

الحجـر على الرجل اليهـودي مختبئاً كان يطرده رجل مسـلم، فاطلع قدامه فاختبأ، يقول الحجر: يا عبدالله هذا ما تبتغي» [رواه الطبراني].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسـول الله ﷺ: **«سينزل الدجال في هذه السـبخة بمر قناة، فيكون أكثر من يخرج إليه النساء، حتى إن الرجل ليرجـع إلى حميمـه، وإلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقهـن رباطاً مخافة أن تخرج إليه، ثم يسـلط الله المسلمين عليه، فيقتلونه ويقتلون شـيعته، حتى إن اليهودي تحت الشجرة والحجر، فيقول الحجر والشجر للمسلم: هذا يهودي تحتي فاقتله»** [رواه الإمام أحمد والطبراني في الأوسط](١).

قال الشـيخ الدكتور يوسـف القرضاوي: «إن المعركـة التي أخبر عنها الرسـول ﷺ في هذا الحديث آتية لا ريب فيها، وهي ليست معركة وطنية ولا قومية، بل هي معركة دينية بين المسلمين واليهود».

ونلاحظ أن النبي ﷺ عمم جميع المسـلمين في الحديث، فهي ليسـت بين فئة وفئة معينة، بل بين المسلمين كلهم ضد اليهود، فالحديث لم يخص أهل فلسطين فقط أو مصر أو سوريا أو غيرها، فالمسلمون في ذلك الوقت يتفقـون على هدف محدد وهو قتال اليهـود، والذي ينظر في حال اليهود اليـوم يرى أنهم يقاتلون بكل ما لديهم من قـوة، مع أنهم أبخل الناس، ويبذلـون النفوس وهم أحرص الناس على الحيـاة كما وصفهم الله تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

لكنهـم خططوا وصمموا ونفذوا مسـتمدين قوتهم مـن تعاليم التوراة وأحكام التلمود.

أما المسلمون فما زالوا بعيدين عن المعركة، وما زال الكثير منهم يريدونها معركة قومية لا دخل للدين فيها.

---

(١) إتحاف الجماعة.

قال الشيخ يوسف القرضاوي: «وهذا الحديث بلا نزاع من أعلام نبوة النبي ﷺ، والذي يقرأ هذا الحديث يعجب مما تضمنه من نبأ ينبئ عن الواقع الملموس لحال المسلمين اليوم وحال اليهود».

وقد مضت قرون كثيرة على إنباء الرسول ﷺ به وما أخبر به سوف يقع بلا شك ولا ريب.

وقد كان اليهود في ذمة المسلمين وحمايتهم وقد اضطهدوا في كل أنحاء العالم، ونبذهم كل أصحاب الملل، ولم يجدوا داراً تأويهم إلا دار الإسلام الذي اعتبرهم أهل كتاب، وأعطاهم المسلمون ذمة الله ورسوله، ولكن اليهود طبعهم المكر والخيانة، فكيف يحدث قتال بينهم وهم في كنف المسلمين وعنايتهم، ولما رأى النبي ﷺ المكر والخداع طردهم وأجلاهم من المدينة بعد أن نقضوا العهود والمواثيق، قال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ [البقرة: ١٠٠].

وفي وقتنا هذا بدأ القتال بالفعل بين المسلمين واليهود منذ أن اغتصبوا فلسطين وأخرجوا أهلها من ديارهم، وانتهكوا المحرمات، وصار الأقصى أسيراً في أيديهم، وهم يخططون لهدمه ليبنوا هيكلهم المزعوم على أنقاضه، والمسلمون لا يزالون في غمرة ساهون، وفي غيهم سادرون.

ولكننا نؤمن ونوقن أن المعركة التي نبأ بها هذا الحديث الصحيح قادمة لا ريب فيها، ولكن لا بد أن نصارح أنفسنا ونقف معها وقفة جادة إذا أردنا أن تتحقق معركة النصر الموعود، فلا بد أن نغير ما بأنفسنا حتى يغير الله ـ تعالى ـ ما بنا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١]، ولقد حدد الرسول ﷺ ملامح المقاتلين الذين سوف يهزمون اليهود من خلال نداء الحجر والشجر، فهو يقول: يامسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله. أما من عبد هواه وشهوات نفسه

فهو غير معني بهذه المعركة، ومن عبد ديناره ودرهمه فهو بعيد جدّاً عنها، قال الرسول ﷺ: **«تعس عبد الدينار والدرهم، تعس عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»** فكل هؤلاء لن يناديهم الحجر بل سيناديهم عدوهم[١].

وروى الإمام أحمد عن جابر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً **«حتى إن الشجرة والحجر ينادي يا روح الله، هذا يهودي، فلا يترك أحداً ممن كان يتبعه إلا قتله»**، ويتضح ذلك أن المسلمين وقيادتهم سيكونون في بيت المقدس، وأن الدجال ومن معه من اليهود سيقدمون إلى فلسطين من خارجها، وسيحاصرون المهدي ومن معه بداخلها، حتى ينزل عليهم عيسى ـ عليه السلام ـ، وفي هذا الوقت بالتحديد سيدل الحجر والشجر على اليهود.

قال الأستاذ سعيد حوى ـ رحمه الله تعالى ـ: «إن دولة اليهود الحالية على كل الاتجاهات في الفهم للنصوص سوف تنتهي وتزول، وليست نهايتها معلقة بنزول عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ، وإن النصوص الواردة بأن الحجر والشجر يدلان المسلم على اليهودي ليقتله ليست واردة في هؤلاء اليهود، بل في الذين يقدمون مع الدجال».

ولئن وصف الرسول ﷺ أولئك المجاهدين في هذا الحديث بوصف عام هو الإسلام، فلقد وصفهم بوصف أخص وهو كونهم أهل السنة والجماعة والطائفة المنصورة، وذلك فيما رواه عمران بن حصين ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»**[٢].

---

(١) مقال للدكتور الشيخ يوسف القرضاوي شبكة الإسلام أون لاين.

(٢) رواه الإمام أحمد (٤/ ٤٢٩) و أبو داود (٤٨٤٥) والحاكم (٣/ ٧١) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وصححه الألباني.

وقد روي عن عثمان بن أبي العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**أكثر أتباع الدجال اليهود والنساء**»(١).

وعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من جابههم إلا ما أصابهم من اللأواء، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**». قالوا أين هم يا رسول الله؟ قال: «**ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس**»(٢).

والظاهر من دلالة هذه النصوص حدوث قتال بين المسلمين واليهود وانتصارهم على اليهود قبل زمن الدجال(٣).

والله أعلم بالصواب وصلى الله على نبينا محمد.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند(٤/ ٢١٦/ ٢١٧) وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

(٢) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٦٩) عن أبيه وجادة ورواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات.

(٣) فقه أشراط الساعة. د. محمد المقدم.

الحديث الرابع

«قتال الروم (الملحمة)»

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق (أو بدابق)، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلوهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويُقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله، ويفتح الثلث لا يفتنون أبداً، فيفتحون قسطنطينية فبينا هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى بن مريم فأمهم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح بالماء، ولو تركه لانذاب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته**» [رواه مسلم].

قال النووي: (الأعماق) و(دابق) موضعان بالشام قرب حلب.

وقال صاحب القاموس: «الأعماق بلد بين حلب وأنطاكية مصب مياه كثيرة لا تجف إلا صيفاً وهو العمق جمع بأجزائه».

وذكر مرتضى الحسيني في تاج العروس أنه بقرب دابق. وقال صاحب القاموس أيضا دابق قرية بحلب.

قال مرتضى الحسيني: وهي على أربعة فراسخ من حلب.

قال النووي: قوله: «**خلوا بيننا وبين الذين سبوا**»، رُويت على وجهين: فتح السين والباء وضمهما، قال القاضي عياض في المشارق: الضم رواية الأكثرين، قال: وهو الصواب، ثم قال ـ رحمه الله تعالى ـ أي النووي

وكلاهما صواب لأنهم سُبُوا أولاً ثم سَبَوا الكفار، وهذا موجود في زماننا بل معظم عساكر الإسلام في بلاد الشام ومصر سُبُوا، ثم هم اليوم بحمد الله يسبون الكفار[1].

قال الشيخ عبد الرحمن البراك ـ حفظه الله تعالى ـ كلاماً بليغا في شرحه لهذا الحديث العظيم قال: «يشتمل هذا الحديث على حدث يكون في آخر الزمان ويتضح أن وقوعه متأخر إلى حين خروج الدجال ونزول المسيح».

ثم قال ـ حفظه الله ـ: «في قوله «**فإذا تصاف الجيشان المسلمون والكفار قال الكفار للمسلمين: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا**» وفيه إشارة إلى تلك الموقعة أو إلى موقعة سابقة للمسلمين قاتلوا الكفار وسبوا منهم، وقوله: «**خلوا بيننا وبينهم**»، أي اتركونا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فينهضون لقتال الروم فيقتتلون فيصيرون ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: لا يتوب الله عليهم أبداً بسبب فرارهم من الزحف. قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٦﴾ [الأنفال: ١٥ ـ ١٦]. وفي الحديث الصحيح «**اجتنبوا السبع الموبقات**» وذكر منها التولي يوم الزحف.

ويبقى ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً عقاباً من الله نسأل الله العافية.

ويقتل ثلث هم خير الشهداء في ذلك العصر، ليس خير الشهداء مطلقاً؛ لأن كثيراً من الأحكام يقيدها السياق، والله أعلم.

ويفتح على ثلث، أو يفتح ثلث ـ يعني بلاد الكفار ـ ويهزمون الكفار فلا يفتنون أبداً، يعصمهم الله ويثبتهم على دينه، ثم يغزون القسطنطينية ويفتحونها ويغنمون أموالاً كثيرة وغنائم.

---

(١) شرح النووي على مسلم ١٨/٢١.

قال ﷺ: «**فبينا هم كذلك قد علقوا سيوفهم وأسلحتهم بالزيتون**»، يؤخذ من هذا أن هذه الوسائل الحديثة للحرب ستذهب وتنضب وتتغير الأحوال. وتعود حياة الناس ووسائل الحياة إلى ما كانت عليه، يقاتلون بالسيوف، فبينا هم كذلك إذ صاح فيهم الشيطان: إن الدجال قد خلفكم في أهليكم.

وهذا باطل، بمعنى أن الدجال لم يخرج ولم يخلفهم في ديارهم وفي أهليهم، فيفزعون ويتركون ما هم فيه، ويعودون إلى الشام، فبينما هم يعدون للحرب وللقتال حانت الصلاة فأقيمت، فينزل المسيح ابن مريم فيؤم الناس.

ويرى البعض الآخر أن الحرب ستدور بالخيول والسيوف لأن الخيول رمز المعدات الحربية أيّاً كان نوعها، ولأن النبي ﷺ كان يخاطب أهل زمانه على قدر عقولهم وعلمهم.

والدليل: عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول: «**إن يعش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم الساعة**» قال هشام: يعني موتهم [رواه البخاري ومسلم].

وقيل: بل إن البترول سينضب وإذا نضب البترول نضبت معه المعدات الحديثة والله أعلم.

وفي السياق أن ابن مريم يقتل دجال الضلالة، وفي هذا إشارة إلى ابن مريم، لا يقتله إلا بعد أن يعيث في الأرض فساداً كما قال عليه الصلاة والسلام: «**فعاث يميناً وعاث شمالاً**»، ويمر بمواضع بما شاء الله من البلاد، وتكون له أحوال، ويتبعه من يتبعه من اليهود وغيرهم.

ولعل هذا الخروج المشار إليه في هذا الموضع في وقت يعد المسلمون فيه لقتال عدوهم؛ لأن هذا أول خروج له، فيخرج فيقتله.

قال الشيخ ـ حفظه الله تعالى ـ بعد أن شرح الحديث: «لا بد في هذه النصوص أن يرد بعضها إلى بعض، ولا يعتمد على سياق واحد دون آخر، بل إن في كل حديث إشارة إلى حدث معين».

وفي هذا الحديث صفة لقتل الدجال، وأنه إذا رأى ابن مريم يذوب كما يذوب الملح في الماء، ولكنه لا يتركه حتى يهلك، بل يباشره ويبادره بالقتل فيقتله بيديه عند باب لد فيرى الناس دمه في حربته.

فأهل السنة والجماعة والمسلمون ينتظرون ابن مريم، وهذا من عقيدتهم، واليهود ينتظرون مسيح الضلالة وهو من عقيدتهم»، انتهى كلام الشيخ عبد الرحمن البراك[1].

قلت: والذي ينظر نظرة تأمل في هذا الحديث يجد أن الرسول ﷺ قد حدد ملامح المعركة بدقة متناهية، فهو ﷺ بين أولاً مكان المعركة أو هذه الملحمة الكبرى بين الروم والمسلمين.

فجيش المسلمين يخرج من المدينة، والروم ينزلون بالأعماق، ثم نراه يحدد هوية المقاتلين ويبين ما يقوله كلا الطرفين، فهؤلاء يقولون كذا، والطرف الآخر يقول كذا. ثم بين مصير المقاتلين، وتسلسل الأحداث وكأنك ترى المشهد أمام عينيك في دقة متناهية وتفاصيل متتابعة وهذا بدون شك من أعلام نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

تسلسل الأحداث في هذه الملحمة:

عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال»** [صحيح الجامع رقم (٣٩٧٥)].

---

(١) أحاديث الفتن ـ باب ملاحم الروم «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم» شرح الشيخ عبدالرحمن البراك ـ مسجد شيخ الإسلام ابن تيمية.

قال ابن كثير: «وليس المراد أن المدينة تخرب بالكلية قبل خروج الدجال، وإنما ذلك في آخر الزمان، بل يكون عمار بيت المقدس سبباً في خراب المدينة، ولفظ أحمد ومسلم: قال ﷺ: **«تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله ـ عز وجل ـ، ثم تغزون الروم فيفتحها الله ـ عز وجل ـ»**.

وقال ﷺ: **«ستصالحون الروم صلحاً آمناً، فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم، فتغنمون وتنتصرون وتسلمون، ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج ذي تلول، فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب، فيقول: غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيوقعه، فعند ذلك تغدر الروم، وتجمع للملحمة، فيثور المسلمون إلى أسلحتهم فيقتتلون فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة»** [مشكاة المصابيح رقم ٥٤٢٨].

وفي الحديث الآخر عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ: **«يوم الملحمة الكبرى فسطاط المسلمين بأرض يقال لها: الغوطة، فيها مدينة يقال لها: دمشق خير منازل المسلمين يومئذ»**.

فالمعقل في الملحمة الكبرى هي مدينة دمشق، وكذلك المدينة، وخروج جيش منها من خيار أهل الأرض يومئذ.

وروى الإمام مسلم عن سعيد بن جابر: جاءت ريح حمراء بالكوفة فجاء رجل فقال: يا ابن مسعود، جاءت الساعة؟ فقعد وكان متكئاً فقال: «إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث ولا يفرح بغنيمة»، ثم قال بيده هكذا نحو الشام. ثم قال: عدو يجتمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام. قلت: الروم تعني؟ قال: نعم، وتكون عند ذلكم القتال ردة، فيشترط المسلمون شرطة: أي طائفة من الجيش تقدم للقتال فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشرط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجزهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة،

ثم يشـــترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلوا حتى يمسوا فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة. فإذا كان اليوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل الله الدبرة عليهم أي الهزيمة، فيقتتلون قتلـــة لم يُر مثلها، حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلفهم أي يجاوزهم حتـــى يخر ميتاً، فيتعاد بنو الأب كانوا مائة فلا يجدون بقي منهم إلا رجل واحـــد، فبأي غنيمة يفـــرح، أو أي ميراث يقاســـم، فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ أن الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون ما في أيديهم ويقبلون فيبعثون عشرة فوارس طليعة.

قال رســـول الله ﷺ: «**إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ**»(١).

قلت: وهذا أيضاً من أعلام نبوته ﷺ، فهو يعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم ، الله أكبر، كم بين عهد رسول الله ﷺ وعهد هؤلاء الفوارس من الوقت الذي لا يعلمه إلا علام الغيوب، لكن لما كانت هذه المعركة أو الملحمة حاسمة في تاريخ الأمة كان لزاماً أن تُبين أحداثها وتفصل تفصيلاً دقيقاً.

قـــال محمد عطيـــة في كتاب «فقد جاء أشـــراطها»: «مـــن خلال هذه الأحاديث الســـابقة يكون ترتيب هذه الأحداث كالتالي والله أعلم: الصلح الآمن بين الروم وبين المسلمين، فيقاتل المسلمون وهم عدواً من ورائهم كما جاءت بذلك الروايات.

وعلى عادة الكفار فإنهم ينســـبون ما حدث من نصر خلال المعارك لهم. ويكون ذلك بأن يرفع أحدهم الصليب ليثير حفيظة المسلمين فيثور رجل من المسلمين فيقتل رافع الصليب ويكسره، فيتخذ النصارى ذلك ذريعة للغدر. فتبدأ الملحمة باستشهاد عصبة من المسلمين على أيدي الكفار ويبدؤون لجمع

---

(١) صحيح مسلم ص٢٤ـ ، ١٧ ،١٨.

جموعهم لقتال المؤمنين، فيأتون تحت ثمانين راية، تحت كل راية اثنا عشر ألف مقاتل ـ يعني عددهم قرابة مليون جندي ـ ويكون جمع المسلمين بالغوطة قرب دمشق، وتجمع الروم بالأعماق أو بدابق، وإنما تحرز الروم هذه الأماكن من بلاد المسلمين في ذلك الوقت بسبب الصلح الآمن الذي يكون بين المسلمين وبينهم.

فيبدأ القتال بينهم لمدة ثلاثة أيام دون غلبة لأحد، فيأتي اليوم الرابع ويأتي بقية أهل الإسلام، وهو والله أعلم الجيش الذي يخرج من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ.

فيطلب الروم عند مقابلة هذا الجيش ألا يتدخل بالقتال، وأن الروم يريدون فقط قتال الذين سبوا منهم، وهم أهل الشام وأهل مصر كما ذكر ذلك النووي ـ رحمه الله تعالى ـ.

فيرفض جيش المدينة الطلب، فيبدأ القتال، وينقسم هذا الجيش إلى ثلاثة أقسام: قسم ينهزم فلا يلهمون التوبة أبداً والعياذ بالله، وقسم يستشهد وهم أفضل الشهداء عند الله ـ تعالى ـ، وقسم يفتح الله على أيديهم لا يفتنون أبداً، فتكون نتيجة المعركة كما يلي:

مقتلة عظيمة للروم، حيث تملأ جثثهم الأرض، وكذلك زهمهم.

ويفنى معظم جيش المسلمين بحيث لا يبقى من كل مائة إلا واحداً.

وتفتح القسطنطينية على يد من تبقى من جيش المسلمين وعددهم سبعون ألفاً. ويترك المسلمون اقتسام الغنائم بعد أن بدؤوا بذلك، لأن الشيطان ـ لعنه الله ـ يصيح فيهم زاعماً أن الدجال خرج، وهو غير صحيح إذ إنه يخرج بعد عودتهم للشام[1].

وتفتح القسطنطينية بغير قتال.

---

(١) كتاب «فقد جاء أشراطها» محمد عطية.

روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ سأل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قال: «هل سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر». قالوا نعم يا رسول الله. قال: «**لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألف من بني إسحاق**».

أي ممن أسلموا لله ـ تعالى ـ، فشرفهم الله ـ تعالى ـ بالقتال مع كتائب التوحيد في هذه الملاحم.

وبنو إسحاق هم الروم، وهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ، فإن لإسحاق أكثر من ولد.

ويظهر والله أعلم أن كثيراً من الروم يعتنقون الإسلام في آخر الزمان قبل الملحمة الكبرى وبعدها، أما قبلها فيدل عليه حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، حيث تقول الروم للجيش القادم من المدينة: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، وحديث عبد الرحمن ابن سنة: فتقول الروم: لن ندعكم حتى تخرجوا إلينا من كان أصله منا.

وأما بعد الملحمة فيدخل كثيراً منهم في الإسلام ويكونون جميعهم من الجيش الذي يفتح القسطنطينية .

عن المستورد بن شداد ـ رضي الله عنه ـ عن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**»، فقال: أعد ما تقول. فقال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: لئن قلت ذلك فإن فيهم خصالاً أربعاً، إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة عند مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة صفة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك.

وبذلك يكون فتح القسطنطينية في المرتين على أيدي المسلمين من غير

العـرب، ففي المرة الأولى على أيدي العثمانيين، والأخيرة على أيدي الروم والعرب[١].

قال ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألف من بني إسحاق، فإذا جاؤوها لم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، وإنما قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط جانبها الذي في البحر، ثم يقولون الثانية، فيسقط جانبها الذي في البر، ثم يقولون الثالثة فيدخلونها فيغنمون»**.

وعن كعب قال: **«ويضرب المسلمون أقفاهم مدبرين لا يمرون بحصن إلا فتح، ولا مدينة إلا فتحت، حتى يردوا القسطنطينية فيكبرون الله ويقدسونه ويحمدونه فينهدم ما بين اثني عشر برجاً، ويدخلها المسلمون، فيومئذ يقتل مقاتلتها، وتفض عذاراها، ويأمرها الله فيظهر كنوزها فآخذ وتارك، فيندم الآخذ ويندم التارك»**، قالوا كيف تجتمع ندامتهما؟ قال: **«يندم الآخذ ألا يكون ازداد، ويندم التارك ألا يكون أخذ»**. قالوا: إنك ترغبنا في الدنيا في آخر الزمان. قال: **«إنه يكون ما أصابوا منها عوناً لهم في سنين شداد وسنين الدجال»**، قال: **«ويأتيهم آت فيقول: خرج الدجال في بلادكم»**، قال: **«فينصرفون حيارى فلا يجدونه خرج، فلا يلبث إلا قليلاً حتى يخرج»** [أخرجه نعيم بن حماد].

وأخرج نعيم بن حماد في الفتن عن بشير بن عبد الله بن يسار. قال: أخذ عبد الله بن بسر المزني صاحب رسول الله ﷺ بأذني وقال: يا ابن أخي، لعلك تدرك فتح القسطنطينية، فإياك أن تترك غنيمتك، فإن بين فتحها وبين خروج الدجال سبع سنين.

وعند مسلم ـ رضي الله عنه ـ: **«إذا أتاكم خبر الدجال وأنتم فيها فلا تدعوا غنائمكم فيها فإن الدجال لم يخرج»**[٢].

---

(١) كتاب المسيح ونهاية العالم عبد الوهاب طويلة ص ٨٣.

(١) إتحاف الجماعة حمود التويجري ١/ ٤٠٠.

وقد روى الديلمي مختصراً: «لا تقوم الساعة حتى يفتح الله على المؤمنين القسطنطينية وروميه بالتسبيح والتكبير».

قال ابن الأثير وابن منظور: «فيخرج إليهم روقة المسلمين ـ أي خيارهم وسراتهم ـ وهي جمع رائق من راق الشيء إذا صفا وخلص».

قال الشيخ حمود التويجري ـ رحمه الله ـ بعد ذكره هذه الأحاديث: «وقد زعم أبو عبية في تعليقه على حديث «**إن الله يفتح للمؤمنين بالتكبير**» وذلك في كتاب النهاية لابن كثير: «**إن روقة الإسلام يهزمون أعداءهم بقوة الإيمان وثبات اليقين الذي ينعكس أثره على الألسنة تسبيحاً وتكبيراً**» انتهى.

قال الشيخ ـ رحمه الله ـ: «وهذا واضح في إنكاره أن يكون الفتح بالتسبيح والتكبير الذي يكون للمؤمنين في ذلك الزمان أعظم من الأسلحة الثقيلة، وهذا من كرامات الأولياء وخوارق العادات، ومن أصول أهل السنة والجماعة التصديق بالكرامات وما يجريه الله على أيدي المؤمنين من الخوارق، ومن لم يصدق بما ثبت من الأخبار من ذلك فقد اتبع غير سبيل المؤمنين، ونظير ذلك أخبار الشجر والحجر للمؤمنين أن وراءها يهودي فتقول: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي [(١)].

وظواهر حديث هذا الباب تدل على أن الذين يباشرون القتال في الملحمة الكبرى هم من العرب، وهم الذين يفتحون القسطنطينية، وهذا لا يتنافى والله أعلم مع ما ذكر آنفاً في أن الذين يفتحون القسطنطينية بنو إسحاق الذين هم من الروم، ويدل عليه قولهم: «**خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا**»، وقولهم: «**لن ندعكم حتى تخرجوا من كان أصله منا**»، وكل هذا يكون بعد الملحمة، لأن كثيراً منهم يدخلون في الإسلام وهم الذين يفتحون القسطنطينية.

أما العرب فيكونون معهم في هذا الفتح العظيم، وهم الجيش الذي

(١) انظر المسيح المنتظر ونهاية العالم ص ٨٢.

يخرج من المدينة. ويدل على ذلك حديث عمرو بن عوف ـ رضي الله عنه ـ: «**ثم يخرج إليهم روقة المسلمين أهل الحجاز**».

وعن عبد الله بن بشير الخثعمي عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**» رواه الإمام أحمد وابنه عبد الله والبزار وابن خزيمة والطبراني، قال الهيثمي: رجاله ثقات، ورواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي(١).

قال الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ: «يظهر من الأحاديث أن فتح القسطنطينية الذي جاء ذكره في هذه الأحاديث على أيدي العرب، والذي يكون بعد الملحمة الكبرى غير الفتح الذي كان على يدي السلطان العثماني محمد الفاتح(٢).

وعن عبد الله بن بشر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بين الملحمة وفتح المدينة وفتح القسطنطينية ست سنين ويخرج الدجال في السابعة**» [أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه].

وهذه الملحمة تكون بحضور المهدي، بدليل حديث نافع بن عتبة ـ رضي الله عنه ـ: «**ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله**» وحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ «**فيخرج إليهم جيش المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ**».

ويكون والله أعلم انتصار المسلمين الساحق على الروم تهيئة لفتح القسطنطينية الأخير(٣).

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المسيح المنتظر ونهاية العالم ص ٨٠.

وقد فتحت القسطنطينية المرة الأولى كما سبق في زمن السلطان محمد الفاتح، فحاز مع جيشه بشارة النبي ﷺ، إلى أن حل الضعف بالمسلمين بعد الحرب العالمية الأولى، وتداعت عليهم الأمم بسبب ابتعادهم عن دينهم الذي أعزهم الله به، فأصبحت القسطنطينية تحت حكم الملحد مصطفى كمال صنيعة الصهيونية والاستعمار، والفتح الأخير لن يكون بقتال كما بشر بذلك النبي ﷺ وإنما بالتكبير والتهليل، فتسقط المدينة مكافأة للمسلمين الذين أبلوا بلاء حسناً لدى قتال الروم في الملحمة الكبرى.

وبعد انتصار المسلمين في هذه الملحمة الحاسمة وفتح القسطنطينية يتقدمون نحو روما عاصمة إيطاليا اليوم، فتفتح بالتكبير أيضاً، بدليل حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ إذ سئل الرسول ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أم رومية؟ قال: «**مدينة هرقل تفتح أولاً (يعني القسطنطينية)**» [أخرجه أحمد وابن شيبة والدارمي والحاكم وصححه ووافقه وأخرجه المقدسي وحسنه].

وبعد فتح القسطنطينية ورومية (روما) تمهد الأرض للمهدي، ويدخل في طاعته أكثر الأمم، فيبعث الجيوش إلى الهند وغيرها، وظاهر ذلك والله أعلم أن المهدي يرسل الجيوش بعد فتح القسطنطينية ورومية، ثم يظهر الدجال بعد ذلك وينزل عيسى ـ عليه السلام ـ فيقتله، ويعود بعض هذه الجيوش إلى الشام فيجدون عيسى ـ عليه السلام ـ[1].

وبعد أن استعرضنا أحداث هذه الملحمة الكبرى يجدر بنا أن نرى ما يتعلق بالمذاهب الفكرية في أوروبا، وفي أصلها وتأثيرها على العالم الإسلامي.

يقول الدكتور سفر الحوالي ـ حفظه الله تعالى ـ في محاضرة له عنوانها التيارات التي تهدف إلى هدم الإسلام، وعن العداء الشديد للمسلمين من

(١) المسيح المنتظر ص ٨٤.

مملكتي فارس والروم، يقول في حديثه عن نشأة وتاريخ الشق الثاني من الكماشة التي تريد أن تطبق فكيها، وقد أطبقتها فعلاً في عصور متعاقبة على هذه الأمة المصطفاة المجتباة، فقد كانت تتصارع على هذه الدنيا مملكتان عظيمتان هما مملكتا فارس والروم، الفرس شرقاً والروم غرباً.

أما مملكة الفرس فقد مزقها الله ـ تعالى ـ كما مزق كسرى كتاب رسول الله ﷺ، وأخضعها لهذا الدين، لهذا انتهجت في عدائها للمسلمين بعد سقوطها وانتهاء عرشها نهج المنافقين الذين دخلوا بدين الله نفاقاً، وأخذوا يدسون فيه الفرق والطوائف، وبنظرة سريعة عابرة على نشأة الفرق ومصادرها نجد أن معظم الفرق التي نشأت وظهرت لهدم هذا الدين وتغيير ملته هي من هذه المملكة، وممَن حواليها، بخلاف الجناح الغربي من العالم الإسلامي، وذلك لأنها وجدت أن هذه هي الفرصة التي تستطيع من خلالها أن تنال من هذا الدين، وهذا ما أثبته علماء الإسلام ودونوه في دواوينهم، كابن الجوزي ـ رحمه الله ـ وابن حزم وابن تيمية وابن القيم وغيرهم من أعلام التاريخ الفكري والفرق في الإسلام.

أما الجانب الآخر، أو المملكة الأخرى، فهي مملكة الروم، وهذه يطول الحديث عنها جداً؛ لأن معركتها مستمرة، وبأوجه كثيرة متعددة، وهي التي تتولى كبر العداوة للعالم الإسلامي في العصور المختلفة، ومنها ما نراه اليوم من عداوة سافرة، ومحاولة جادة للانقضاض على هذا الدين والإجهاز على أهله.

وليس في تاريخ المعارك الفكرية أو الحضارية أو الميدانية أيضاً معركة أطول من المعركة بين المسلمين والروم، وبين المسلمين والعالم الغربي الصليبي اليهودي.

إن هذه المعركة بدأت منذ ظهور النبي ﷺ وهجرته إلى المدينة وكفر

اليهود به، كما قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة:٨٩].

ولن تنتهي هذه المعركة إلا بقيام الساعة وظهور الدجال، حيث تكون الملحمة الكبرى والأخيرة مع الروم، كما بين الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة، وبعد المعركة وانتصار المسلمين ينادي الصريخ بأن الدجال قد ظهر، وتستمر المعركة كما بين النبي ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق»** والهدف هو الهدف، وهو البلاد التي ودعها هرقل، وقال كلمته المشهورة: سلام عليك يا سوريا، سلام لا لقاء بعده، وهي البلاد التي تظل محط أنظار الصليبيين بين يدي الساعة[1].

(١) موقع الشيخ سفر الحوالي.

الحديث الخامس

«أحداث وفتن كثيرة بين يدي الساعة»

روى البخاري - رحمه الله تعالى - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج، وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض، حتى يهم رب المال من يقبل صدقته وحتى يعرضه عليه فيقول الذي يعرضه عليه لا أرب لي به، وحتى يتطاول الناس بالبنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت و رآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً. ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نعجته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه»**.

اشتمل هذا الحديث العظيم على عدد من أشراط الساعة، والأشراط منها كبرى ومنها صغرى، من جهة الحجم وعظم الوقوع، فأحدها قد وقع وانتهى وقوعه كما أخبر بذلك الرسول ﷺ، والثاني قد وقعت مبادئه ولم يستحكم بعد، والثالث ما لم يقع منه شيء ولكنه قطعاً سيقع، فالنوع الأول ما أخبر عنه النبي ﷺ من اقتتال الفئتين العظيمتين وظهور الفتن وكثرة الهرج والقتل وتطاول البنيان وغيرها.

أما الثاني وهو الذي بدأ ولكنه لم يستحكم بعد، مثل تقارب الزمان،

وهــذا ذكره العلماء، ولكنه في عصرنــا أوضح، وكثرة الدجالين الكذابين وكثرة الزلازل.

وهنــاك نمط ثالث لم يقع بعد: مثل طلوع الشــمس من مغربها، ومنها قتال اليهــود، وهذا يقع قبل ظهور الدجال، وقد جاء في حديث ســمرة ـ رضي الله عنه ـ: **«لا تقوم الســاعة حتى تروا أموراً عظاماً لم تحدثوا أنفســكم بها»** وفي لفظ: **«يتفاقم شــأنها في أنفســكم تسألون هل كان نبيكم ذكر لكم منها ذكــراً»**، وجاء في حديث آخر **«حتى تروا الجبال تزول عن أماكنها»** [أخرجه الإمام أحمد والطبراني والترمذي].

وفــي حديث عبد الله بن عمــر ـ رضي الله عنهما ـ: **«لا تقوم الســاعة حتى يتفاســد الناس في الطريق تفاســد الحمر»** فكما يفعل الحمير بعضها ببعض سيفعل الناس في الطرقات وعلى الملأ وأمام الناس والعياذ بالله.

ومنها وقوع الشــح، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: **«لا تقوم الساعة حتى لا يقسم ميراث ولا يفرح بغنيمة»** [أخرجه مسلم].

وحديث حذيفة بن أسيد ـ رضي الله عنه ـ عن الخسوف الثلاثة **«خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب»** [أخرجه مسلم].

وقد أخرج أحمد والطبراني وأبو يعلى **«لا تقوم الساعة حتى يخسف بقبائل من العرب»** (١).

قال ابن حجر: وقد وجد الخســف في مواقــع ولكن يحتمل أن يكون المراد بالخسوف الثلاثة قدراً زائداً على ما وجد، كأن يكون أعظم منه مكاناً أو قدراً.

وحديث أنس ـ رضي الله عنه ـ: **«لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض لا إله إلا الله»** [أخرجه أحمد بســند قوي]، وروى أحمد بسند جيد عن عبد الله بن

(١) فتح الباري ١٣/ ٩٠.

عمر ـ رضي الله عنه ـ: «**لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطته من أهل الأرض، فيبقى عجاج لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً**».

وعلى هذا فآخر الآيات المؤذنة بقيام الساعة هبوب ريح تقبض أرواح المؤمنين، وذلك بعد وفاة عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ الذي قال: «**إن الساعة تكون حينئذ كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تضع**». أما قوله ﷺ: «**حتى تقتتل فئتان عظيمتان**» فهما علي ومن معه ومعاوية ومن معه.

قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ: «يؤخذ من تسميتهم مسلمين، ومن قوله دعواهما واحدة الرد على الخوارج ومن تبعهم في تكفيرهم كلاً من الطائفتين»:

ودل حديث «**تقتل عماراً الفئة الباغية**» على أن علياً كان المصيب في تلك الحرب لأن أصحاب معاوية هم قتلوه ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ [1].

وقد أخرج البزار بسند جيد عن زيد بن وهب قال: كنا عند حذيفة فقال: «كيف أنتم وقد خرج أهل دينكم يضرب بعضهم وجوه بعض بالسيف. قالوا فما تأمرنا؟ قال انظروا الفرقة التي تدعو إلى أمر علي فالزموها فإنها على الحق».

وأخرج يعقوب بن سفيان بسند جيد عن الزهري قال: لما بلغ معاوية غلبة علي على أهل الجمل دعا إلى الطلب بدم عثمان، فأجابه أهل الشام فسار إليه علي فالتقيا بصفين، وقد ذكر الجعفي أحد شيوخ البخاري في كتاب صفين بسند جيد عن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية: أنت تنازع علياً في الخلافة أوأنت مثله؟ قال: قال: لا، وإني لأعلم أنه أفضل مني وأحق مني بالأمر، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً وأنا ابن عمه ووليه أطلب بدمه، فأتوا علياً فقولوا له: يدفع لنا قتلة عثمان. فأتوه.

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٩٢.

فقال: يدخل في البيعة ويحاكمهم إلي. فامتنع معاوية فسار علي في الجيوش من العراق حتى نزل بصفين، وسار معاوية حتى نزل هناك وذلك بالحجة سنة ست وثلاثين، ولم يتم لهم أمر، فوقع القتال إلى أن قتل من الفريقين فيما ذكر ابن خيثمة في تاريخه نحو سبعين ألفاً، وقيل أكثر من ذلك، وذكر ابن سعد أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ لما قتل وبويع علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أشار عليه ابن عباس أن يقر معاوية على الشام حتى يأخذ له البيعة ثم يفعل فيه ما شاء ما امتنع، فبلغ ذلك معاوية فقال: والله لا ألي له شيئاً أبداً[١].

قال الشيخ عبد الرحمن البراك ـ حفظه الله تعالى ـ في تعليق على الحديث: «من أصول أهل السنة والجماعة الإمساك عما شجر بين الصحابة وعدم الخوض فيه، ومن أصولهم سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ»، ثم قال ـ جزاه الله خيراً ـ: «وهذا قريب أن يكون المراد بقوله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة**» أقرب ما يكون المراد هو ذلك، وهو ما جرى بين العسكريين من أهل الشام وأهل العراق، وهذه من الأحداث التي تكون قبل القيامة، وقد كانت وانتهت كما أخبر بها النبي ﷺ، وكل ما أخبر به رسول الله ﷺ فإنه من أعلام نبوته، وبهذا نعلم أن أعلام نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ تتجدد حيناً بعد حين، فكلما ظهر أمر مما أخبر به الرسول ﷺ كان ذلك من أعلام نبوته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وأكثر الذين كانوا يختارون القتال من الطائفتين لم يكونوا يطيعون لا علياً ولا معاوية، وكان علي ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ أطلب لكف الدماء من أكثر المقتتلين، ولكن

(١) فتح الباري ١٣/ ٩٢.

غلبا فيما وقع».

والفتنة إذا ثارت عجز الحكماء عن إطفاء نارها.

وكان في العسكَرَينِ مثل الأشتر النخعي وهاشم بن عتبة ونحوهم من المحرضين على القتال، قوم ينتصرون لعثمان غاية الانتصار، وقوم ينفرون منه، وقوم ينصرون علياً، وقوم ينفرون منه(١).

وهذه الأشراط وما ذكر في هذا الحديث أو غيره يختلف الناس بالعلم فيه، إما في العلم بخبر النبي ﷺ به، أو في العلم في الواقع به؛ لأن كثيراً من أشراط الساعة لا يعلمها الناس لعدم سماعهم بها، أو أن بعضهم قد سمعها ولكن لا يعلم هل وقعت أم لا؟

ومن أشراط الساعة ما علمنا وقوعه ومنه ما لم يقع بعد.

قال ﷺ: **«وحتى ينبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه نبي»**.

قال الشيخ البراك ـ حفظه الله تعالى ـ: «وهذا أيضاً خبر عن غيب لا تقوم الساعة حتى يبعث البعث، ويسمى بعثاً أو إرسالاً، وهو مضاف إلى الله ـ تعالى ـ، وهو نوعان: بعث كوني وبعث شرعي. وكذلك الإرسال، قال العلماء: هو إرسال الله ـ تعالى ـ الرسل بالدين الحق، والعلوم بما أوحى إليهم ـ سبحانه وتعالى ـ. والبعث منه التسليط، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣].

هذا يسمى بعثاً أو إرسالاً كونيّاً، وقوله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون»** داخل فيه، يعني حتى يوجد ويظهر.

وكلهم يزعم أنه رسول الله، يدعي ذلك كذباً، وهؤلاء متفرقون في سائر الزمان، فقد ظهر بعضهم ولم يظهر آخرون، ولعل الذين ظهروا أكثر

(١) انظر أشراط الساعة. يوسف الوابل. ص ١٠٤ .

من ثلاثين، وفي المستقبل المنظور يمكن أن يظهر كذابون، قال علماؤنا: ولعل المراد أن يكون لهم أتباع على مر العصور، فقد ظهر مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وغيرهم، ولعل آخرهم الأعور الدجال الذي ادعى النبوة ثم ادعى الربوبية، وظهر في العصر الحديث ميرزا القادياني بالهند، وادعى النبوة، وأنه المسيح المنتظر، وأن عيسى لن يأتي من السماء، وصار له أتباع وأنصار وانبرى له كثير من العلماء فردوا عليه»[1].

قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ: «ويستفاد من قوله ﷺ **«حتى يبعث دجالون»** أن أفعال العباد مخلوقة لله ـ تعالى ـ، وأن جميع الأمور بتقديره ـ سبحانه ـ».

وقال أيضاً: «وقوله: **«كلهم يزعم أنه رسول الله»** ظاهر في أن كلاً منهم يدعي النبوة، وهذا هو السر في قوله في آخر الحديث: **«وإني خاتم النبيين»**، ويحتمل أن يكون الذين يدعون النبوة منهم ما ذكر من الثلاثين أو نحوها، وأن من زاد على العدد المذكور ويكون كاذباً فقط ولكنه يدعو إلى الضلالة كغلاة الرافضة، والباطنية، وأهل الوحدة والحلولية، وسائر الفرق.

وقوله صلى الله ﷺ: **«حتى يقبض العلم»**.

قال الشيخ البراك ـ حفظه الله ـ: «جاء في الحديث الصحيح أن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينزعه من صدور الرجال، ولكن يقبض العلم بموت العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا».

ومن أشراط الساعة قبض العلماء، وبقبضهم يقل العلم، لكنه لا يقبض بشكل نهائي إلا في آخر الزمان عند قرب قيام الساعة، كما جاء في الحديث أنه يسرى على القرآن فلا يبقى منه في الأرض آية.

---

(١) أشراط الساعة. ليوسف الوابل. ص ١١٦.

وقد فسر بعض أهل العلم قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ [الرعد: ٤١] بموت العلماء، فقد ذكر وكيع بن الجراح عن طلحة ابن عمير عن عطاء بن أبي رباح قال: نقصانها ذهاب فقهائها وخيار أهلها، وقال أبو عمر بن عبد البر: قول عطاء في تأويل الآية حسن جدّاً وقد تلقاه أهل العلم بالقبول[١].

وعبر عن نقص العلم بموت أهله فكلما مات عالم في بلد ولم يخلفه غيره نقص العلم في تلك البلد.

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «والمراد بقبض العلم استحكام ذلك حتى لا يبقى مما يقابله إلا النادر، وإليه الإشارة بالتعبير بقبض العلم، فلا يبقى إلا الجهل الصرف، ولا يمنع من ذلك وجود طائفة من أهل العلم، لأنهم يكونون حينئذ مغمورين في أولئك، ويؤيده ما أخرجه ابن ماجه بسند قوي عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: «**يُدرس الإسلام كما يُدرس وشي الثوب حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة**».

وقيل: ينقص العلم بنسيان العلماء ما تعلموه [٢].

قلت: وتأمل معي قوله ﷺ: «**حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً**»، عبر عنه بصفة الجمع ورؤوس جمع رأس، حتى يفهم من ذلك أن هؤلاء الجهال حلوا محل العلماء في العلم والفتوى فأصبحوا رؤوساً وهم من أجهل الناس.

روى الطبراني في الأوسط من طريق سعيد بن جبير: «**لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والبخل، ويخون الأمين، ويؤتمن الخائن، وتهلك الوعول، وتظهر التحوت**»، قالوا: يا رسول الله ما التحوت والوعول؟ قال: «**الوعول وجوه**

(١) تفسير القرطبي ٩/ ٣٣٤ .

(٢) فتح الباري ١٢/ ٢٩٧ .

الناس وأشرافهم، والتحوت الذين كانوا تحت أقدام الناس ليس يعلم بهم».

وقد جاء في الحديث: «**لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا، فإذا تساووا هلكوا**».

قال الطحاوي: «قد يكون معناه في ترك طلب العلم خاصته والرضا بالجهل، وذلك لأن الناس لا يتساوون في العلم؛ لأن درجات العلم تتفاوت قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٧٦]، وإنما يتساوون إذا كانوا جهالاً، وكأنه يريد غلبة الجهل وكثرته بحيث يفقد العلم بفقد العلماء.

قال ابن بطال: وجميع ما تضمنه الحديث من الأشراط قد رأيناها عياناً، فقد نقص العلم، وظهر الجهل، وألقي الشح في القلوب وعمت الفتن وكثر القتل(١).

قلت: هذا في عهد ابن بطال، فكيف لو رأى زماننا هذا الذي عمت فيه الفتن وطمت والله المستعان.

وقوله «**وتكثر الزلازل**» قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «قد وقع في كثير من البلاد الشمالية والشرقية والغربية كثير من الزلازل ولكن الذي يظهر أن المراد بكثرتها شمولها ودوامها، وقد وقع في حديث سلمة بن نفيل عند أحمد: «**وبين يدي الساعة سنوات الزلازل**».

قال الشيخ عبد الرحمن البراك ـ جزاه الله خيراً ـ: «في قوله ﷺ عن الخسوف الثلاثة خسف في المشرق وخسف في المغرب وخسف في جزيرة العرب، قال: الخسوف تتابع وتحصل نتيجة الزلازل، ومثل هذه الأخبار عن الغيبيات لا يأتي على الجزم بالتعيين بها؛ لأن هذا هو المعني بخبر الرسول ﷺ، لكن هذا يؤخذ على سبيل الإجمال(٢).

---

(١) انظر فتح الباري كتاب الفتن ١٢/ ١٨.

(٢) شرح الشيخ عبد الرحمن البراك حديث: «**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان**».

أما كثرة الزلازل فإنه أمر ملاحظ، وفيها عبر وعظات للمعتبرين، وما يرسل الله ـ عز وجل ـ هذه الآيات للناس إلا ليتوبوا إلى ربهم ويعودوا إليه سبحانه ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾ [الإسراء: ٥٩]، وما طريق الهروب من هذه الآيات إلا بالرجوع إلى الله ـ تعالى ـ رب الأرض والسموات، وكثرة الاستغفار من الذنوب المهلكات، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣] وتنوع هذه الآيات بتنوع الذنوب فكلما كثرت الذنوب وتنوعت تنوع أشكال العذاب، قال تعالى ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقوله: «**يتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج**» قال الشيخ البراك ـ حفظه الله تعالى ـ: «أما تقارب الزمان فكثر كلام الشارحين فيه، ولعل من أقرب ما قيل فيه إن الزمان يقصر بسبب الغفلة».

وقال بعض أهل العلم: «ولعل تقارب الزمان عبر به عن تقارب المكان وتقارب المكان يتضمن تقارب الزمان، وذلك لما تهيأ للناس من وسائل اتصال ومواصلات، فما كان يُقطع في شهر يُقطع الآن في ساعة بالطيران، ولعل الاتصالات الصوتية والمرئية التي تختصر الزمن مما يدخل في تقارب الزمان».

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أشراط الساعة أن يتقارب الزمان وينقص العلم وتظهر الفتن ويلقى الشح**» [رواه الشيخان].

وهذا كناية عن قصر الأعمار أو قلة البركة أو هو على الحقيقة، واختار النووي والقاضي عياض وابن حجر أن المراد نزع البركة من كل شيء حتى

الزمـــان، وأن الانتفاع باليوم يصير بقدر الانتفاع بالســـاعة الواحدة، وقيل بل هو على الحقيقة، ويشـــهد لذلك ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رســـول الله ﷺ: «**لا تقوم الســـاعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنة كالشـــهر، ويكون الشـــهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالســـاعة، وتكون الساعة كاحتراق السعفة**» [أخرجه أحمد وابن حبان وصححه الهيثمي].

قـــال ابن بطال في تقارب الزمـــان: «معناه والله أعلم تقارب أحوال أهله في قلة الدين حتى لا يكون فيهم من يأمر بمعروف وينهى عن منكر؛ لغلبة الفســـق وظهور أهله، وقد جاء في الحديث: «**لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا، فإذا تســـاووا هلكوا**» يعني: لا يزال فيهم خير ما كان فيهم أهل خير وصلاح وخوف من الله ـ تعالى ـ، يُلجأ إليهم وقت الشـــدائد ويُستشـــفى بآرائهم ويتبرك بدعائهم، قال ابن حجر: والواقع أن هذه الصفات من تقارب الزمان وظهور الشح والقتل، وقد وجدت بداياتها بعهد الصحابة، ثم صارت تكثر في الأماكن دون بعض، وقد مضى من الوقت الذي قال فيه ابن بطال ما قال نحو ثلاثمائة وخمســـين سنة، والصفات المذكورة في ازدياد، وكلما ظهرت طبقـــة ظهر النقص الكثير في التي تليها، وفي هذا إشـــارة إلى قوله ﷺ: «**لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه**»، ثم نقل ابن بطال عن الخطابي في معنى تقـــارب الزمان الحديث الذي أخرجه الترمـــذي عن تقارب الزمان: «**لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان**»، قال الخطابي: هو من استلذاذ العيش يريد والله أعلم أنه يقع عند خروج المهدي ووقوع الأمن في الأرض وغلبة العدل فيها فيستلذ العيش عند ذلك، وتقصر مدته، وما زال الناس يستقصرون مدة أيام الرخاء وإن طالت، ويستطيلون مدة المكروه وإن قصرت».

ثـــم قال ـ رحمـــه الله ـ أي ابن حجر ـ كلاماً عجيبـــاً فريداً قال: «إنما احتاج الخطابي إلى تأويله بما ذكر لأنه لم يقع النقص في زمانه، وإلا فالذي

تضمنه الحديث قد وجد في زماننا هذا ـ أي في زمن ابن حجر ـ ثم قال: فإننا نجد في سرعة الأيام ما لم نكن نجده في العصر الذي قبل عصرنا هذا وإن لم يكن هناك عيش مستلذ».

قلت: لقد عاش ابن حجر في القرن السابع الهجري وبيننا وبينه أكثر من ثمانمائة عام، وهو يرى عدم البركة في الوقت، بل يرى أن زمن أيام الخطابي أفضل من زمانه، فلو رأى ابن حجر زماننا هذا فماذا سيقول؟

قال البيضاوي: «يحتمل أن يكون المقصود بتقارب الزمان تسارع الدول إلى الانقضاء، والقرون إلى الانقراض، فيتقارب زمانهم وتتوالى أيامهم[(١)].

ولعل حقيقة التقارب تظهر في أيام الدجال، أما في زماننا فإن كثيراً من الناس يرون أن أحدهم لا يقدر أن يبلغ من العمل قدر ما كان يعمل قبل ذلك، ويرى أن الوقت يمضي بسرعة، ولا يدري ما العلة؟ ولعل السبب كثرة المخالفات والمعاصي، فإن البركة في الوقت والرزق والعمر وغيرها إنما تكون بالإيمان والطاعة، ولاسيما صلة الرحم[(٢)].

وينطبق أيضاً على عكس ذلك، كما نرى في زماننا فإن الإنسان بسبب تقدم وسائل النقل والاتصالات المسموعة والمرئية والمكتوبة ليقضي في الزمن القصير ما كان يقضيه في أزمنة متطاولة[(٣)].

وقوله: **«وتظهر الفتن»**.

قال ابن حجر: «فالمراد كثرتها واشتهارها وعدم التكاتم بها، والله المستعان».

---

(١) ا فتح الباري ج ١٢، كتاب الفتن ص ١٨.

(٢) المسيح المنتظر ونهاية العالم ص ٥٠، ٥١.

(٣) نفس المصدر ص ٥١.

قال الشيخ البراك: «وتكثر الفتن هذه كلمة عامة، وكثيراً ما تطلق الفتن على الحروب والشهوات والشبهات».

وعن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ قال: أشرف النبي ﷺ على أطم من آطام المدينة فقال: «هل ترون ما أرى؟» قالوا: لا. قال: «**فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر**» [رواه الإمام أحمد وابن شيبة والشيخان].

وعن أم سلمة زوج النبي ﷺ ـ رضي الله عنهما ـ قالت: «استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعاً يقول: «**سبحان الله ماذا أنزل من الخزائن؟ ماذا أنزل من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجرات؟ ـ يريد أزواجه لكي يصلين ـ رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة**»، [رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح].

وعن زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ قالت: «خرج رسول الله ﷺ ذات ليلة فزعاً محمراً وجهه يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه (وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها)**» قالت: قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**» [رواه الإمام أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: «خص العرب بذلك لأنهم كانوا حينئذ معظم من أسلم، والمراد بالشر ما وقع بعده من قتل عثمان، ثم توالت الفتن حتى صارت العرب بين الأمم كالقصعة بين الأكلة، وكان قبل مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ فتنة عظيمة، كانت والله أعلم هي البداية التي عبر عنها بالباب الذي يكسر، وهي مقتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «**ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من**

الساعي، ومن تشرف لها تستشرفه»[1].

قوله: «**ويكثر الهرج**»، قال ابن حجر: «والهرج بلسان الحبشة هو القتل، وأصل الهرج باللغة العربية الاختلاط، يقال: هرج الناس إذا اختلطوا واختلفوا، وهرج القوم في الحديث إذا أكثروا وخلطوا».

وأخطأ من قال نسبة تفسير الهرج بالقتل للسان الحبشة، وهو وهم من بعض الرواة، وإلا فهي عربية صحيحة، ووجه الخطأ أنها لا تستعمل في اللغة العربية بمعنى القتل إلا عن طريق المجاز، لكون الاختلاط مع الاختلاف يفضي كثيراً إلى القتل، وكثيراً ما يسمى الشيء باسم ما يؤول إليه.

واستعمال العرب الهرج بمعنى القتل لا يمنع كونها لغة الحبشة، وإن ورد استعمالها في الاختلاط والاختلاف كحديث معقل بن يسار «**العبادة في الهرج كهجرة**» [أخرجه مسلم].

وذكر صاحب المعجم أن للهرج تسعة معان منها: شدة القتل وكثرته، والفتنة آخر الزمان، وكثرة النكاح، وكثرة الكذب، وكثرة النوم.

قال الجوهري: «أصل الهرج الكثرة في الشيء حتى لا يميز».

قلت: وقد كثر القتل في زماننا هذا حتى لا تكاد تأتي نشرة أخبار من هنا وهناك إلا وفيها خبر عن حوادث قتل .

وعبر عن كثرة القتل؛ لأن له علامة بقرب الساعة؛ وذلك لأن موت الناس يعني انقضاء الحياة الدنيا.

قوله: «**وحتى يكثر فيكم المال ويفيض**».

وكثرة المال تشعر بأنه محمول على زمن الصحابة، فيكون إشارة إلى ما وقع من الفتوح واقتسامهم أموال الفرس والروم، وأما قوله «**فيفيض**»

---

(١) إتحاف الجماعة للشيخ حمود التويجري.

إشـــارة إلا ما وقع في عصر عمر بن عبد العزيز من أن الرجل يعرض ماله للصدقـــة فلا يجد من يقبل صدقته، ويكون قوله: «**حتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه لا أرب لي به**» إشارة إلى ما سيقع في زمن عيسى ـ عليه السلام ـ فيكون في الحديث ثلاثة أحوال:

الحالـة الأولـى: إشـــارة إلى كثرة المـــال فقط، وقـــد كان ذلك في زمن الصحابة، ومن ثم قال: فيه يكثر فيكم، وفيه إشـــارة إلى حديث عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: «**أعدد ستّاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، وموتان، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل منه مئة دينار فيظل ساخطاً**».

الحالة الثانية: الإشـــارة إلى فيضه من الكثرة، بحيث إنه يحصل اســـتغناء كل أحـــد عن أخذ مال غيـــره، وكان ذلك آخر عصر الصحابة وأول عصر من بعدهم، ومن ثم قال «**يهم رب المال**» وذلك ينطبق على ما وقع في عهد عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ.

الحالة الثالثة: فيه الإشـــارة إلى فيضه وحصول الاستغناء لكل أحد حتى يهـــم صاحب المال بالتصدق على الناس فلا يجد من يقبل صدقته، ويزداد بأنه يعرضه على غيره، ولو كان لا يســـتحق الصدقة فيأبى أخذه، ويقول: لا حاجة لي فيه، وهذا في زمن عيسى ـ عليه السلام ـ.

ويحتمـــل أن يكون هـــذا الأخير عند خروج النار وانشـــغال الناس بأمر المحشر، فلا يلتفت أحد إلى المال، بل يقصد أن يتخفف منه [1].

قلت: وقد روي عنه ﷺ أن الأرض في آخر الزمان تقيء فلذة أكبادها، وتخرج الأموال والذهب أمثال الأســـطون، فلا يلتفت إليها أحد؛ لأن كل امرئ في ذلك اليوم العظيم له شأن يغنيه.

---

(١) فتح الباري ١٢/ ٩٢ كتاب الفتن.

قال الشيخ عبد الرحمن البراك في شرح الحديث: «أما كثرة المال واستفاضته فيما يظهر لي أنه لم يحدث بعد، والسائد أنه لم يصل الأمر بالناس أنهم لا يقبلون الصدقة والزكاة، فالزكاة الآن يأخذها من يستحقها ومن لا يستحقها».

أما قوله «حتى يهم» فإنه فعل مضارع من أهمه، وهذا واضح أرجح ما جاءت عليه الرواية.

و«يهم» يعني يهتم ويخاف ألا يجد من يقبل صدقته حتى إنه يعرضه على من يعرضه عليه فيقول: «لا حاجة لي فيه» والمانع والله أعلم من عدم قبول المال إما أن يكون زهداً فيه، أو بسبب ما يعيشه الإنسان في ذلك الوقت من الفتن العظيمة التي تضعف تعلق الإنسان بالمال.

ولكن عند النظر في سياق الحديث يقتضي أن الباعث والحامل على ذلك هو فيضان المال.

قال الشيخ: «وهذا عجيب، فإن الإنسان من المعروف عنه أنه لا يشبع من المال، فالسياق يقتضي ارتباط الامتناع من أخذ الصدقة بالفيضان وبكثرة المال حتى يهم رب المال من يأخذ صدقته فلا يجد من يقبل منه ذلك»[1].

قلت: وقوله: إن السياق يقتضي ارتباط الامتناع بالفيضان فيه معنى عجيب، وهو أن الفيضان في هذا الحديث له علاقة طردية بالامتناع عن أخذ المال، فلو كان المال غير فائض لما امتنع عنه طالبه، لكن لما كان ما يشغله عن أخذه شيء عظيم كان الترك أولى والله أعلم.

وقوله: «حتى يتطاول الناس في البنيان».

قال ابن حجر في الفتح: «فيه إشارة إلى حديث جبريل عن الإيمان في

(١) شرح الشيخ عبد الرحمن البراك لحديث «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان» أحاديث الفتن.

قولــه «**حتى يتطاول الناس في البنيان**»، وهــي من العلامات التي وقعت عن قرب في زمن النبوة.

ومعنى التطاول في البنيان أن كل من كان يبني بيتاً يريد أن يكون ارتفاعه أعلــى من ارتفاع الآخر، ويحتمل أن يكون المراد المباهاة بالزينة والزخرفة أو أعم من ذلك، وقد وجد الكثير من ذلك وهي في ازدياد»(١).

وهــذا في زمان ابن حجــر، فكيف لو رأى ما عليه أهل هذا الزمان من التباهي والتطاول في البنيان ما وصل إلى حد مغني عن الوصف.

قلت: وقد عد النبي ﷺ التطاول في البنيان من أشــراط الساعة، ومن الأمــور التي تــأذن بزوال الدنيا؛ لأن ذلك والله أعلــم مدعاة إلى التفاخر والمباهاة بزينة الدنيا الزائلة وبحطامها الفاني.

وفي حديث جبريل ـ عليه الســلام ـ قال: «**وحتى ترى الحفاة رعاء الشاة**» أي أهل البادية الذين كانوا لا يهتمون بأمور الدنيا قد سكنوا القصور الفارهة وتراهم يتطاولون في البنيان ويتفاخرون فيها.

وقوله: «**حتى يمر الرجل بقبر الرجل**».

قــال ابن حجر ـ رحمه الله تعالــى ـ في الفتح: «قال ابن بطال: تغبط أهــل القبور، ويتمنى الموت عنــد ظهور الفتن، إنما هو خوف ذهاب الدين بغلبة الباطل وأهله وظهور المعاصي. والمنكرات»(٢).

وليس هذا عاماً في كل أحد، وإنما هو خاص بأهل الخير.

وأما غيرهم فقد يكون لما يقع لأحدهم من المصيبة في نفســه أو أهله أو دنياه، وإن لم يكن في ذلك شيء يتعلق بدينه.

ويؤيده ما أخرجه في رواية أبي حازم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ

---

(١) فتح الباري ١٢/ ٩٢ كتاب الفتن.

(٢) فتح الباري ١٢/ ٨١ كتاب الفتن .

عند مسلم: **«لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتني مكان صاحب هذا القبر، وليس الدين إلا البلاء»**.

وذكر الرجل فيه للغالب، وإلا فالمرأة يتصور فيها ذلك، والسبب في ذلك ما ذكر في رواية أبي حازم أنه يقع البلاء والشدة حتى يكون الموت الذي هو أعظم المصائب أهون على المرء، فيتمنى أهون المصيبتين في اعتقاده وبهذا جزم القرطبي.

وأغرب بعض الشراح فقال: المراد بالدين هنا العادة، والمعنى أنه يتمرغ على القبر ويتمنى الموت في حالة ليس المتمرغ فيها من عادته، وإنما الحامل عليه البلاء.

وتعقبه الطيبي بأنه حمل الدين على حقيقته أولى أي: «ليس التمني والتمرغ لأمر إصابته من جهة الدين، بل من جهة الدنيا».

وقال ابن عبد البر: «ظن بعضهم أن هذا الحديث معارض للنهي عن تمني الموت، وليس كذلك، وإنما في هذا أن القدر سيكون لشدة تنزل بالناس من فساد الحال في الدين أو ضعفه أوخوف ذهابه لضرر ينزل بالجسم».

وكأنه يريد أن النهي عن تمني الموت حيث يتعلق بضرر الجسم، وأما إذا كان لضرر يتعلق بالدين فلا.

وقال القرطبي: «كأن في الحديث إشارة إلى أن الفتن والمشقة البالغة ستقع حتى يخف أمر الدين، ويقل الاعتناء بأمره، ولا يبقى لأحد اعتناء إلا بأمر دنياه ومعاشه، ومن ثم عظم قدر العبادة أيام الفتنة، ويؤخذ من قوله: **«حتى يمر الرجل بقبر الرجل»** أن التمني المذكور إنما يحصل عند رؤية القبر، وليس ذلك مراداً، بل فيه إشارة إلى قوة هذا التمني.

لأن الذي يتمنى الموت بسبب الشدة التي تحصل عنده قد يذهب ذلك التمني أو يخف عند مشاهدة القبر والمقبور، فيتذكر هول المقام فيضعف تمنيه.

فإذا تمادى على ذلك دل على تأكد أمر تلك الشدة عنده حيث لم يعرفه ما شاهده من وحشة القبر وتذكر ما فيه من الأهوال عن استمراره في تمني الموت.

وقد أخرج الحاكم من طريق أبي سلمة قال: «عدتُ أبا هريرة فقلت: اللهم اشف أبا هريرة، فقال: اللهم لا ترجعها، إن استطعت يا أبا سلمة فمت، والذي نفسي بيده ليأتين على العلماء زمان الموت أحب إلى أحدهم من الذهب الأحمر، وليأتين أحدهم قبر أخيه فيقول: ليتني مكانه».

وفي كتاب الفتن من رواية عبد الله ابن الصامت عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: «يوشك أن تمر الجنازة على الجماعة في السوق فيراها الرجل فيهز رأسه فيقول: يا ليتني مكان هذا. قلت: يا أبا ذر إن هذا لمن أمر عظيم؟ قال: أجل» [1].

قال الشيخ عبد الرحمن البراك في شرحه للحديث: «فيه إشارة لتمني الموت ولا يدل على جوازه؛ لأنه بإخبار بواقع، والأخبار بالواقع لا يدل على الحكم، كذا قال، وقد قال ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**» هذا خبر عما سيكون، وليس إقراراً لهذا الاتباع بل هو إخبار أن هذا كائن».

قلت: والإخبار بخلاف الإقرار، ففي هذا الحديث أخبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن الناس سوف يتبعون طرق من سبقهم، لكنه لم يقرهم على هذا الاتباع، وعلى هذا تكون إشارة النبي ﷺ لتمني الموت إخباراً منه، ولا يدل على جوازه، بل الأولى للمسلم أن يقول: «**اللهم أحيني ما دامت الحياة خيراً لي، وتوفني ما دامت الوفاة خيراً لي**» كما أرشدنا النبي ﷺ عندما نهانا عن تمني الموت.

وقوله: «**حتى تطلع الشمس من مغربها**».

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح بعد أن أورد الآية وهي قوله

(١) فتح الباري جـ ١٢ كتاب الفتن .

تعالى: «**حين لا ينفع نفساً إيمانها**»: «قال الطبري: معنى الآية: لا ينفع كافراً لم يكن آمن قبل الطلوع إيمانٌ بعد الطلوع، ولم ينفع مؤمناً لم يكن عمل صالحاً قبل الطلوع عملٌ صالحٌ بعد الطلوع، لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ حكم من آمن أو عمل صالحاً عند الغرغرة، وذلك لا يفيد شيئاً كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤]، وقد ثبت في الحديث الصحيح: «**تقبل توبة العبد ما لم يبلغ الغرغرة**»، وفي رواية «**ما لم يغرغر**»، أي: ما لم تبلغ روحه حلقه.

وقال ابن عطية: «في هذا الحديث دليل على أن المراد بالبعض في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] طلوع الشمس من المغرب، وإلى ذلك ذهب الجمهور».

وأسند الطبري عن ابن مسعود أن المراد بالبعض إحدى ثلاث، هذه يعني: الشمس أو خروج الدابة أو الدجال. قال: وفيه نظر، لأن نزول عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ يعقب خروج الدجال، وعيسى لا يقبل إلا الإيمان، فانتفى أن يكون بخروج الدجال لا يقبل الإيمان ولا التوبة.

قلت ـ أي ابن حجر ـ: ثبت في صحيح مسلم من طريق حازم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «**ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض**» قيل: ولعل ذلك يكون متتابعاً بحيث تبقى النسبة إلى الأول منها مجازية، وهذا بعيد؛ لأن مدة لبث الدجال إلى أن يقتله عيسى، ثم لبث عيسى وخروج يأجوج ومأجوج كل ذلك سابق على طلوع الشمس من المغرب.

فالذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى ابن مريم، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة

بتغير أحوال العالم العلوي، وينتهي ذلك بقيام الساعة.

ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب.

قال الحاكم أبو عبد الله: «الذي يظهر أن طلوع الشمس يسبق خروج الدابة، ثم تخرج الدابة في ذلك اليوم أو الذي يقرب منه».

قلت ـ أي ابن حجر ـ: «والحكمة في ذلك أنه عند طلوع الشمس من مغربها يغلق باب التوبة، فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة».

وقال القرطبي في التذكرة: «فعلى هذا فتوبة من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة، فلو امتدت أيام الدنيا بعد ذلك إلى أن ينسى هذا الأمر، أو ينقطع تواتره، ويصير الخبر عنه خبر آحاد، فمن أسلم حينئذ أو تاب قُبل منه، وأيد ذلك بأنه روي أن الشمس والقمر يكسبان الضوء بعد ذلك، ويطلعان ويقربان من المشرق كما كانا قبل ذلك».

وعند ابن عساكر من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري: «بين يدي الساعة عشر آيات كالنظم في الخيط إذا سقط منها واحدة توالت».

قال البيهقي: «إن كان في علم الله أن طلوع الشمس سابق احتمل أن يكون المراد نفي النفع عن أنفس القرن الذين شاهدوا ذلك، فإذا انقرضوا وتطاول الزمان وعاد بعضهم إلى الكفر عاد تكليفه الإيمان بالغيب».

وفي حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عند نعيم بن حماد في كتاب الفتن عن جابر الخيواني قال: «كنا عند عبدالله بن عمرو فذكر قصة قال: ثم أنشأ يحدثنا قال: إن الشمس إذا غربت سلمت وسجدت واستأذنت في الطلوع، فيؤذن لها، حتى إذا كان ذات ليلة فلا يؤذن لها، اطلعت من حيث غربت، قال: فمن يومئذ إلى يوم القيامة لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن

آمنت من قبل، وفي رواية ذكر قصة المتهجدين، وأنهم هم الذين يستنكرون بطء طلوع الشمس، قلت: الله أكبر، تأمل معي حال المتهجدين في ذلك الزمان، ولأنهم كانوا يقومون الليل ويتهجدون استنكروا بطء طلوع الشمس في ذلك اليوم الذي تطلع فيه من مغربها، وقد تذكرت سؤال الصحابة لرسول الله ﷺ عن الصلاة عندما أخبرهم بخروج الدجال، وأنه يلبث في الأرض أربعين يوماً، قالوا: كيف نصلي؟ انظر معي، لم يسألوه عن هذه الفتنة العظيمة، بل كان أكبر همهم الصلاة، على أن الصحابة لن يدركوا زمن الدجال، إلا أنهم كانوا إذا حدثهم الرسول ﷺ عنه كانوا يقولون: كنا نظنه في نخل المدينة، وهو الذي قال عنه عليه الصلاة والسلام: «**إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه**»، مما يدل على أن القوم كانوا يخافون على أنفسهم من الفتن، ومن التقصير في العمل.

قال: «يقوم الرجل فيقرأ حزبه ثم ينام، ثم يقوم فيقرأ ثم ينام، ثم يقوم، وهذا كله يدل على تأخر طلوع الشمس، فعندما يموج الناس بعضهم ببعض حتى إذا طلعوا الفجر وجلسوا، فإذا هم بالشمس قد طلعت من مغربها، فيضج الناس ضجة واحدة، حتى إذا توسطت السماء رجعت، وعند البيهقي في «البعث والنشور» من حديث ابن مسعود «فينادي الرجل جاره: يا فلان، ما شأن الليلة؟ لقد نمت حتى شبعت، وصليت حتى أعييت»، وهذا كله يدل على أن الشمس إذا طلعت من مغربها أغلق باب التوبة، ولم يفتح بعد ذلك، وأن ذلك لا يختص بيوم الطلوع، بل يمتد إلى يوم القيامة.

واستدل صاحب الكشاف بهذه الآية، فقال قوله: «لم تكن آمنت من قبل» صفة لقوله «نفساً»، وقوله «أو كسبت في إيمانها خيراً» عطف على «آمنت».

والمعنى أن أشراط الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة للإيمان ذهب أوان التكليف عندها، فلم ينفع الإيمان حينئذ من غير مقدمة إيمانها قبل ظهور الآيات، أو مقدمة إيمانها من غير تقديم عمل صالح، فلم يفرق كما ترى بين النفس الكافرة، والنفس التي آمنت في وقته، ولم تكتسب خيراً؛ ليعلم أن قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥] جمع بين قرينتين لا ينبغي أن تنفك إحداهما عن الأخرى حتى يفوز صاحبها، ويسعد، وإلا فالشقوة والهلاك[1].

قوله: **«ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه»**.

قال ابن حجر: وقع عند مسلم من رواية سفيان عن أبي الزناد: **«ويتبايعان الثوب فلا يتبايعانه حتى تقوم الساعة»**.

وللبيهقي في البعث من طريق محمد بن زياد عن أبي هريرة: **«ولتقومن الساعة على رجلين قد نشرا بينهما ثوباً يتبايعانه فلا يتبايعانه ولا يطويانه»**.

ونسبة الثوب إليهما في الرواية الأولى باعتبار الحقيقة في أحدهما، والمجاز في الآخر، لأن أحدهما مالك والآخر مستام، ومعنى مستام أي يسأل البائع: كم ثمن هذا الثوب؟ وقوله في الرواية الأخرى **«يتبايعانه»** أي يتساومان فيه: مالكه والذي يريد شراءه، فلا يتم بينهما ذلك من بغتة قيام الساعة، فلا يتبايعانه ولا يطويانه.

وفي حديث عقبة بن عامر عند الحاكم قال ﷺ: **«تطلع عليكم قبل الساعة سحابة سوداء من قبل المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع حتى تملأ السماء، ثم ينادي مناد: يا أيها الناس ثلاثاً، يقول في الثالثة: أتى أمر الله، قال: والذي نفسي بيده إن الرجلين لينشران الثوب بينهما فما يطويانه»**.

---

(١) فتح الباري ـ كتاب الرقاق ١١/ ٣٦١ـ٣٦٢.

والــذي دعاهما والله أعلم قد ترك ذلك الثوب حدوث أمر عظيم يذهل العقول، وهذا فيه دلالة على أن الساعة تقوم بغتة، والناس في دنياهم، فإذا قامت عطلت العشار، وذهلت المرضعات، ووضعت الحوامل، قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝﴾ [الحج: ١ ـ ٢].

قوله: «**يليط حوضه**»، والمعنى يصلحه بالطين والمدر، فيسد شقوقه ليملأه ويسقي منه دوابه، يقال: لاط الحوض يليطه إذا أصلحه، ومنه يقال: اللائط لمن يفعل الفاحشة، وجاء في مضارعه يلوط تفرقة بينه وبين الحوض.

وفي حديث عبدالله بن عمرو عند الحاكم: وأصله في مسلم: «**ثم ينفخ في الصور فيكون أول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيصعق، ففي هذا بيان السبب في كونه لا يسقي من حوضه شيئاً**».

قوله: «**ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته**» اللقحة: هي ذات الدر من النوق، أي ذات اللبن.

فينصرف بلبن ناقته لا يستطيع أن يشربها، وصاحب الأكلة لا يستطيع أن يأكل لقمته، والذي يريد شراء الثوب لا يستطيع شراءه؛ لأن الحياة انتهت بالنفخ في الصور الذي يؤذن بيوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝﴾ [التكوير: ٤]: والعشـار هي النوق الحوامل التي توشك أن تلد، فتكون في يوم القيامة بلا فائدة.

انتهى شرح الحديث، نسأل الله القبول ومنه العون والسداد.

الحديث السادس
«قتال الترك والتتار»

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً كأن وجوههم المجانّ المطرّقة، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر**»، وروى مسلم عن أبي هريرة عنه ﷺ أنه قال: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك، قوماً وجوههم كالمجان المطرقة يلبسون الشعر، ويمشون في الشعر**».

وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر، وحتى تقاتلوا الترك صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الأنوف، وجوههم المجان المطرقة**».

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن تغلب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً عراض الوجوه كأن وجوههم المجان المطرقة**».

قال ابن الأثير: «**الذلف**» بالتحريك قصر الأنف وانبطاحه، وقيل: ارتفاع طرفه مع صغر أرنبته، والذلف بسكون اللام جمع أذلف كأحمر وحمر.

قال الخطابي: يقال: أنف أذلف إذا كان فيه غلظ وانبطاح.

«**والمجان**» جمع المجن وهو الترس و«**المطرقة**» التي قد عليت بطارق وهو الجلد الذي يغشاه، وشبه وجوههم في عرضها ونتوء وجناتها بالترس قد ألبست الأطرقة.

قال ابن الأثير: «كأن وجوههم المجان المطرقة أي التراس التي ألبست العقب شيئاً فوق شيء، ومنه طارق النعل إذا صيرها طاقاً فوق طاق،

وركب بعضها فوق بعض» انتهى.

وروى الإمام أحمد والبخاري عن همام واللفظ له عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزاً وكرمان من الأعاجم، حمر الوجوه، فطس الأنوف، صغار الأعين كأن وجوههم المجان المطرقة، نعالهم الشعر**».

قلت: ووصف النبي ﷺ لهم بلا شك من أعلام نبوته، حيث وصفهم بأوصاف شكلية دقيقة بالرغم من أنه لم يرهم، ووصفه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لهم بمعاييرمتعددة تدل على معرفة بالسلالات البشرية مثل: لون البشرة وشكل الوجه والأنف، وحتى وصفه للنعال، كل ذلك يدل دلالة واضحة على أن هذا النبي يوحى إليه، وإلا فمن أخبره عن كل هذه الأوصاف؟!

وقوله «**كالمجان المطرقة**» إشارة إلى كثرة اللحم في الوجه، فالحديث شبه وجوههم بالتروس، وهذا ينطبق على السلالة المغولية.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: «**خوز**» بضم الخاء المعجمة وسكون الواو بعدها زاي قوم من العجم.

وكرمان بكسر الكاف على المشهور ويقال: بفتحها والراء ساكنة على كل حال.

وفي قوله: «**تقاتلون الترك**» إشكال؛ لأن خوزاً وكرمان ليسا من بلاد الترك.

أما خوز فمن بلاد الأهواز، وهي من عراق العجم، وقيل: الخوز صنف من الأعاجم.

وأما كرمان فبلدة مشهورة من بلاد العجم أيضاً بين خراسان وبحر الهند، ويمكن أن يجاب بأن هذا الحديث غير حديث قتال الترك، ويجتمع

منهما الإنذار بخروج الطائفتين.

قال الشيخ حمود التويجري: «وقد ذكر في أحاديث الدجال أنه ينزل خوز وكرمان في سبعين ألف وجوههم كالمجان المطرقة، وذلك في الحديث الذي رواه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وعلى هذا فلعل المراد بها في حديث همام أعوان الدجال، ووقع الإنذار بهم وبالترك لشدة بأس كل من الطائفتين والله أعلم».

ويتبع الدجال أخلاط الناس من عجم وترك وغيرهم.

وقد يسأل البعض ما علاقة حديث: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزاً وكرمان**» بحديث: «**إن الدجال ينزل خوزاً وكرمان وسبعون ألف كأن وجوههم المجان المطرقة**»؟ والذي يظهر والله أعلم أن الحديث الأول غير الحديث الثاني، ففي الأول أشار النبي ﷺ إلى حتمية قتال هذه الطائفة قبل يوم القيامة، وأنهم من خوز وكرمان أي من الأهواز و خراسان، وأنهم سيقاتلون المسلمين بدليل: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزاً وكرمان من الأعاجم، حمر الوجوه فطس الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة**».

لكن لماذا جمع النبي ﷺ بين خوز وكرمان في الحديثين وكرر الأوصاف نفسها.

وللتفريق بينهما نقول: لا يوجد علاقة بين قتال المؤمنين لخوز وكرمان قبل قيام الساعة وبين نزول الدجال خوزاً وكرمان في سبعين ألف.

لكن كيف نجمع بين وصفين متشابهين جاءا في حديثين مختلفين؟ ويجاب عن ذلك بأنه لا يوجد تشابه بينهما، فهؤلاء يقاتلون قبل يوم القيامة، وهؤلاء يتبعون الدجال عند خروجه.

وبينهما فاصل زمن كبير، فعن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**يخرج ـ أي الدجال ـ في أرض بالمشرق يقال لها: خراسان**

يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة» [أخرجه الترمذي وأحمد وابن ماجه، وقال الحاكم صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي].

وعند نعيم بن حماد: **«يخرج الدجال من قبل المشرق من أرض يقال لها خراسان»**.

فكما نرى أن الرسول ﷺ حدد مكان خروج الدجال، وأن أتباعه سبعون ألفاً من خوز وكرمان، وبين في الحديث الآخر أن المؤمنين يقاتلون خوزاً وكرمان قبل قيام الساعة، فلا تشابه ولا تعارض بين الحديثين، والله أعلم بالصواب.

وعن قيس بن أبي حازم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«تقاتلون بين يدي الساعة قوماً نعالهم الشعر، كأن وجوههم المجان المطرقة حمر الوجوه صغار الأعين»**. [رواه الإمام أحمد والشيخان، وهذا لفظ مسلم]، وفي رواية لأحمد أنه قال: **«قريب بين يدي الساعة تقاتلون قوماً نعالهم الشعر، وتقاتلون قوماً صغار الأعين حمر الوجوه كأنها المجان المطرقة»**.

أما السبب في أن نعالهم شعر: فبسبب المناطق الباردة التي يعيشون فيها.
وأما أن وجوههم حمراء فمن شدة البرد لأن الدم يتجمع في وجوههم.

ولفظ البخاري قال: سمعته يقول: «ـ وقال هكذا بيده ـ: **بين يدي الساعة تقاتلون قوماً نعالهم الشعر**» وهو هذا البارز، وقال سفيان مرَّة: «وهم أهل البارز».

قال الحافظ في الفتح: «وقع ضبط الأولى بفتح الراء بعدها زاي، وفي الثانية بتقديم الزاي على الراء، والمعروف الأول، ووقع عند ابن السكن وعبدوس بكسر الزاي وتقديمها على الراء، وبه جزم الأصيلي وابن السكن ومنهم من ضبطه بكسر الراء».

قال القابسـي: معناه البارزين لقتال أهل الإسلام، أي الظاهرين في براز من الأرض.

ويقال: معناه القوم الذين يقاتلون. تقول العرب: هذا البارز إلى شـيء ضار.

قال ابن كثير: «قول سـفيان المشهور بالرواية في الرواية من تقديم الراء على الزاي وعكسه تصحيف، كأنه اشتبه على الراوي من البارز وهو السوق بلغتهم».

وأخرجـه أبو نعيم من طريق إبراهيم بن بشـار عن سـفيان، وقال في آخـره: قـال أبو هريـرة ـ رضي الله عنه ـ: وهـم أهـل البارز ـ يعنـي الأكراد ـ. قال غيره: البارز الديلم؛ لأن كلاً منهما يسـكنون في براز من الأرض أو الجبال وهي بارزة عن وجه الأرض.

وقيـل: هي أرض فارس، وقيل هي غير ذلك، وقد ظهر مصداق ذلك الخبر. انتهى.

وعن عمرو بن تغلب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسـول الله ﷺ «**إن من أشـراط الساعة أن تقاتلوا قوما ينتعلون نعال الشـعر، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلـوا قوماً عراض الوجوه كأن وجوههم المجـان المطرقة**» [رواه الإمام أحمد وأبو داود والبخاري وابن ماجه].

قال الحافظ فـي الفتح: هذا الحديث وغيـره كحديث الأعرج عن أبي هريرة، وحديث ابن المسـيب عن أبي هريرة ظاهر فـي أن الذين ينتعلون الشعر غير الترك.

وقد وقع للإسماعيلي من طريق محمد بن عباد قال: بلغني أن أصحاب بابك كانت نعالهم الشعر.

قال ابـن حجر: «**بابك**» بموحدتين مفتوحتـين، وآخره كاف، يقال له:

الخرمي بضم المعجمة وتشديد الراء المفتوحة، وكان من طائفة من الزنادقة استباحوا المحرمات، وقامت لهم شوكة كبيرة في أيام المأمون، وغلبوا على كثير من بلاد العجم كطبرستان والري إلى أن قتل بابك المذكور في أيام المعتصم، وكان خروجه في سنة إحدى و مائتين أو قبلها، وقتله في سنة اثنتي وعشرين بقيت بعد المائتين.

وعن عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**يوشك خيل الترك مخرمة الآذان أن تربط بسعف نخل نجد**».

رواه ابن قانع وذكره صاحب كنز العمال.

وقد ظهر مصداق هذا الحديث في أثناء القرن الثاني عشر من الهجرة، حين جاء الترك وأعوانهم من المفسدين في الأرض فعاثوا في بلاد نجد بالقتل والتخريب والإفساد[1].

وقد قاتل المسلمون الترك في عصر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، وذلك في أول خلافة بني أمية في عهد معاوية ـ رضي الله عنه ـ.

روى أبو يعلى عن معاوية بن خديج قال: كنت عند معاوية بن أبي سفيان حينما جاءه كتاب من عامله أنه أوقع بالترك وهزمهم، وكثرة من قتل منهم، وكثرة ما غنم، فغضب معاوية من ذلك، ثم أمر أن يكتب إليه: قد فهمت مما قلت ما قتلت وغنمت، فلا أعلمن ما عدت لشيء من ذلك ولا قاتلتهم حتى يأتيك أمري. قلت: لم يا أمير المؤمنين؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لتظهرن الترك على العرب حتى تلحقها بمنابت الشيح والقيصوم**» فأنا أكره قتالهم لذلك[2].

---

(١) انظر إتحاف الجماعة ٢/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٢) فتح الباري ٦/ ٦٠٩.

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعنا النبي ﷺ يقول: «**إن أمتي يسوقها قوم عراض الوجوه صغار الأعين كأن وجوههم الحجف**» (ثلاث مرات) والحجف هي التروس، حتى يلحقوهم بجزيرة العرب، أما السابقة الأولى فينجو من ينجو من هرب منهم، وأما الثانية فيهلك بعض وينجو بعض، وأما الثالثة فيصطلمون كلهم من بقي منهم. قالوا يا نبي الله من هم؟ قال: «**هم الترك**» قال: «**أما والذي نفسي بيده ليربطن خيولهم إلى سواري مساجد المسلمين**».

قال: وكان بريدة لا يفارقه بعيران أو ثلاثة ، ومتاع السفر والأسقية بعد ذلك للهروب مما سمع من النبي ﷺ من البلاء من أمراء الترك[1].

ثم نقل القرطبي ما ذكره من خروج الترك وأنهم خرجوا ثلاث مرات على المسلمين، وكان خروجهم الأخير تدميرهم بغداد، وقتلهم الخليفة والعلماء والأمراء والفضلاء والعباد، وأنهم أوغلوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد حتى ملكوا الشام مدة يسيرة، ودخل رعبهم الديار المصرية إلى أن تصدى لهم الملك المظفر الملقب (قطز) في معركة (عين جالوت) فكان له النصر والظفر عليهم، كما كان النصر لطالوت، وتفرقت جموعهم وكفى الله شرورهم.

وقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن الشام تغير هواؤها، ومات كثير من الناس بسبب كثرة ما قتل في العراق من الناس، فقد روي أنه قتل ألف ألف من المسلمين، وتغير ماء دجلة من كثرة ما ألقي فيه من الكتب.

قال ابن حجر: «كان ما بينهم وبين المسلمين مسدوداً إلى أن فتح ذلك شيئاً بعد شيء، وكثر السبي منهم، وتنافس الملوك فيهم لما يتصفون به من الشدة والبأس، حتى كان أكثر عسكر المعتصم منهم، ثم غلب الأتراك على

---

(١) رواه أحمد ٥/٣٤٨ ـ ٣٤٩. قال أبو الخطاب عمر ابن دحية: هذا إسناد صحيح.

الملـك فقتلوا ابنه المتوكل، ثم أبناءه واحداً بعد واحد إلى أن خالط المملكة الديلم، ثم كان الملوك الســامانية من الترك أيضاً، فملكوا بلاد العجم، ثم غلب على تلك الممالك آل سبكتكين ثم آل سلجوق، وامتدت مملكتهم إلى العراق والشام والروم، ثم كان بقايا أتباعهم بالشام وهم آل زنكي.

ثم جـاءت الطامة الكبرى بالططر (التتار) فكان خروج جنكيز خان بعد الست مائة.

فأسعرت بهم الدنيا ناراً، خصوصاً المشرق بأسره، حتى لم يبق بلد منه حتى دخله شرهم، ثم كان خراب بغداد سنة ست وخمسين وست مائة.

ثـم لم تزل بقاياهم يخربون إلى أن كان آخرهم (اللنك) ومعناه الأعرج واسـمه: (تيمور) بفتـح المثناة وضم الميم ، فطرق الديار الشـامية وعاث فيها، وحرق دمشـق حتى صارت على عروشها، ودخل الروم والهند وما بـين ذلك، وطالت مدته إلى أن أخـذه الله وتفرق بنوه في البلاد، وظهر مصداق قوله ﷺ: «**إن بني قنطوراء أول من سـلب أمتي ملكهم**»، وكأنه يريد بقوله «**أمتي**» أمة النسب لا أمة الدعوة، يعني العرب، والله أعلم[١].

وعلى هـذا يكون التتار الذيـن ظهروا في القرن السـابع الهجري هم مـن الترك، فإن الصفات التي جاءت في وصـف الترك تنطبق على التتار (المغول)، وقد كان ظهورهم في زمن الإمام النووي ـ رحمه الله ـ.

فقـال فيهم: «وقد وجد قتال هؤلاء التـرك بجميع صفاتهم التي ذكرها النبي ﷺ: صغار الأعين، حمر الوجوه، المجان المطرقة، ينتعلون الشعر، فوجدوا بهذه الصفات كلها، وقاتلهم المسلمون مرات»[٢].

وقد دخل كثير منهم في الإسلام بعد ذلك، ووقع على أيديهم خير كثير

---

(١) فتح الباري (٦/ ٦٠٩-٦١٠).

(٢) شرح النووي لمسلم ١٨/ ٣٧-٣٨ .

للإسلام والمسلمين، وكوّنوا دولة إسلامية قوية عزّ بها الإسلام، وحصل في عهدهم كثير من الفتوحات العظيمة، منها فتح القسطنطينية.

وهو تهيئة للفتح العظيم آخر الزمان قبل ظهور الدجال.

وهذا مصداق لما قاله النبي ﷺ كما في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ بعد ذكره لقتال الترك قال: «**وتجدون من خير الناس أشدهم كراهته لهذا الأمر حتى يقع فيه، والناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام**»(١)(٢).

وهذا تحقق، حيث أسلموا في أواخر الدولة العباسية، وأسسوا مملكة إسلامية اسمها القبيلة الذهبية، واعتنق امبراطورهم الإسلام، وكان اسمه بركة خان، وكانت تربطه بالظاهر بيبرس علاقة طيبة، حيث حرض سلطان مصر بيبرس على محالفة هذه الدولة الإسلامية المغولية، حيث تبادل معه البعوث والهدايا سنة ٦٦٠هـ كما تزوج ابنته، وأمر بالدعاء له على منابر مكة والمدينة والقاهرة.

وعرف منهم علماء مثل قطب الدين الرازي وغيره.

وعن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتنزلن طائفة من أمتي أرضاً يقال لها: البصرة، يكثر بها عددهم، ويكثر بها نخلهم، ثم يجيء بنو قنطوراء: عراض الوجوه، صغار العيون، حتى ينزلوا على جسر لهم يقال له: دجلة، فيتفرق المسلمون ثلاث فرق، فأما فرقة فتأخذ بأذناب الإبل وتلحق بالبادية، وهلكت، وأما فرقة فتأخذ على نفسها، فكفرت، فهذه وتلك سواء، وأما فرقة فيجعلون عيالهم خلف ظهورهم، ويقاتلون، فقتلاهم شهداء، ويفتح الله على بقيتهم**» [رواه الإمام أحمد وأبو داود والطيالسي وابن أبي شيبة وأبو داود السجستاني، وابن حبان في صحيحه].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب ٦/ ٦٠٤.

(٢) انظر: أشراط الساعة ليوسف الوابل ص١٢٠ وما بعدها.

ففي هذا الحديث رسم لنا النبي ﷺ ملامح المعركة مع التتار، فنراه يحدد المدينة التي ينزلها المسلمون، وهي البصرة، حيث يكثر فيها عددهم، وهي كثيـرة النخل. وبيان النبي ﷺ لهـذه المدينة أنها كثيرة النخل يدل على أن التتار يربطون خيولهم بها عندما يهجمون عليها.

ثم بين أوصاف التتار، وأنهم صغار الأعين، عراض الوجوه، وأنهم من بني قنطوراء.

قال الحاكم: «وبنو قنطـوراء هم الترك، وكذا قال الخطابي وابن منظور في لسان العرب».

قـال الخطابي: «يقال إن قنطوراء اسـم لجارية كانـت لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسـلام ـ ولدت له أولاداً جاء من نسـلهم الترك، وكذا قال ابن الأثير وابن منظور، وزاد أن الصين من نسلها أيضاً».

قال ابن منظور: «بنو قنطوراء هم من السـودان، أو هي جارية لإبراهيم من نسلها الترك. والقول الأول هو المشهور».

وبعد اسـتعراض هذه الأحاديث يتبين لنـا أن المغول كان لهم صولات وجولات في العالم الإسلامي، وبذلك يكون الذي أخبر به ـ عليه الصلاة والسـلام ـ قد وقع، ونقرؤه ونستعرض أحداثه بالتفاصيل وكأننا نراه رأي العين، وهذا علم من أعلام نبوته ـ عليه الصلاة والسـلام ـ، وصلى الله على نبينا محمد.

الحديث السابع
«نساء دوس وعبادة ذي الخلصة»

قال البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب عن الزهري قال: قال سعيد بن المسيب، أخبرني أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس على ذي الخلصة»**.

ولمسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة»**، وكانت صنماً تعبدها دوس في الجاهلية بتبالة.

و**«ذي الخلصة»** صنم لدوس كانوا يعبدونه، وقال الشيخ البراك ـ جزاه الله خيراً ـ: ذي الخلصة صنم لهذه القبيلة، وقبيلة دوس جماعة لأبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، دعا لهم النبي ﷺ: **«اللهم اهد دوساً وائتني بهم»** فهدى الله دوساً، ودمر صنمهم، ويذكر بعض الناس أن مكان هذا الصنم لا يزال معروفاً.

وقد وقع الأمر طبق ما أخبر به رسول الله ﷺ في هذا الحديث، وعظم افتتان أهل تبالة ومن حولهم من القبائل بذي الخلصة[1] حتى ولي الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ـ رحمه الله ـ على الحجاز وما حوله، فبعث عامله على تلك النواحي جماعة من المسلمين، فهدموا ما بقي من بنائها، ورموا بأنقاضها في الوادي، فعفى بعد ذلك رسمها، وانقطع أثرها، ـ ولله الحمد والمنة ـ، وذلك في سنة ألف وثلاثمائة

(١) تبالة قرية بين الطائف واليمن بينهما ستة أيام .

وأربع وأربعين أو خمس وأربعين من الهجرة، وقد ذكر بعض الإخباريين عن بعض الذين شاهدوا هدمها في هذه المرة الأخيرة أن بناءها كان قوياً محكماً، وأن أحجارها كانت ضخمة جداً، بحيث لا يقوى على زحزحة الحجر الواحد أقل من أربعين رجلاً[1].

قال ابن التين: فيه الإخبار بأن نساء دوس يركبن الدواب من البلدان إلى الصنم المذكور.

فهو المراد باضطراب إلياتهن. قلت: أي ابن حجر: ويحتمل أن يكون المراد أنهن يتزاحمن بحيث تضرب عجيزة بعضهن الأخرى عند الطواف حول الصنم المذكور.

وفي معنى هذا الحديث ما أخرجه الحاكم عن عبدالله بن عمر قال: **«لا تقوم الساعة حتى تدافع مناكب نساء بني عامر على ذي الخلصة»**.

قال الشيخ عبدالرحمن البراك في شرحه للحديث: «هذا كناية عن تزاحمهن وطوافهن على ذلك الصنم، وتخصيص النساء بالذكر هنا لأن من يقصده منهن أكثر، والجهل فيهن أغلب، فلعل هذا هو السر في تخصيصهن بالذكر، وإلا فإن قبيلة دوس كانت تعظم ذا الخلصة ـ رجالها ونساؤها ـ فقد كانوا يقصدونه ويتقربون إليه على عادة أهل الجاهلية، وقد يكون إخبار النبي ﷺ أن دوساً سوف تعبد الأصنام، وتعود إلى عبادتها قبل قيام الساعة، وأن ذلك سيقع سواء عاد الصنم بهذا الاسم «ذي الخلصة» أو عاد باسم آخر، كما عاد العرب وعبدوا الأصنام القديمة: أصنام قوم نوح «ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر» تلك الأسماء، واستخرجها لهم عمرو بن لحي الخزاعي، وهو أول من غير دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ، ودعا العرب إلى عبادتها من دون الله ـ تعالى ـ، ولذا فإن النبي ﷺ ذكر بأنه أول من

(١) انظر: إتحاف الجماعة للشيخ حمود التويجري – ج٢.

يجـــر قصبه في النار يوم القيامة، لأنه حرف الناس عن دين الله ـ تعالى ـ (انظر: شرح الحديث للشيخ البراك).

وروى ابن عدي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ رفعه: «**لا تقوم الساعة حتى تعبد اللات والعزى**».

قال ابن بطال: هذا الحديث وما أشبهه ليس المراد به أن الدين ينقطع كله في جميع أقطار الأرض حتى لا يبقى منه شيء؛ لأنه ثبت أن الإسلام يبقى إلى قيام الساعة، إلا أنه يضعف ويعود غريباً كما بدأ.

ثم ذكر حديث: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق**» الحديث.

قال: فتبين في هذا الحديث تخصيص الأخبار الأخرى، وأن الطائفة التي تبقى على الحق تكون ببيت المقدس إلى أن تقوم الساعة.

قال: فبهذا تأتلف الأخبار.

قلت: ليس فيها ما يُحتج به من التصريح ببقاء أولئك إلى يوم القيامة، وإنمـــا فيها (حتى يأتي أمر الله) فيُحتمل أن يكون المراد بأمر الله الســـاعة، ويحتمـــل غيـــر ذلك، مثل: تنـــزل النصر، أو قبـــض أرواح من بقي من المؤمنين، والله أعلم.

وظواهر الأخبار تقتضي أن الطائفة التي تكون ببيت المقدس آخرهم أولئك الذين ســيكونون مع عيسى ـ عليه الســـلام ـ، ثم إذا بعث الله الريح الطيبة فقبضت روح كل مؤمن لم يبق إلا شرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة.

فقد أخرج الإمام مســـلم من حديث ابن مسعود: «**لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس**». وذلك إنما يقع بعد طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة وسائر الآيات العظام.

وقد ثبت أن الآيات العظام عندما تظهر يتبع بعضها بعضاً مثل الســـلك إذا انقطع تناثر الخرز منه بسرعة.

وقد روي أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان، فيأمرهم بعبادة الأوثان، ثم ينفخ في الصور(١).

والذي ينظر في حال الأمة اليوم يرى أنه لا يزال هناك صور من الشرك في بعض البلدان، وصدق الرسول ﷺ إذ يقول: «**لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللات والعُزى**».

ومظاهر الشرك كثيرة، فليست محصورة في عبادة الأحجار والأشجار والقبور، بل تتعدى ذلك إلى اتخاذ الطواغيت أنداداً من دون الله، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، أي جعلوا علماءهم يشرعون لهم، فيحلون لهم الحرام، ويحرمون عليهم الحلال، وإذا كان هذا في التحليل والتحريم، فكيف بمن نبذوا الإسلام وراءهم ظهرياً، واعتنقوا المذاهب الإلحادية من علمانية وشيوعية واشتراكية وقومية، ثم يزعمون أنهم مسلمون(٢).

قال الشيخ حمود التويجري ـ رحمه الله تعالى ـ: «وقد وقع مصداق ما أخبر به النبي ﷺ في زماننا وقبله بزمان طويل، فكانت النساء تزاحم الرجال عند القبور المعظمة عند الجهال، وتضطرب إلياتهن في حال طوافهن على تلك الأوثان، وما أكثرها في هذه الأزمنة، والله المسؤول أن ييسر هدمها ويمحو آثارها بالكلية، إنه على كل شيء قدير».

قلت: وقد رأيت مصداق قوله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات النساء**» رأيته في مصر فقد يسر الله لي زيارة إلى مسجد الحسين، فرأيت النساء هناك يتزاحمن على القبر، وتضطرب إلياتهن هناك، وسمعت

---

(١) انظر: فتح الباري ١٣.

(٢) انظر: أشراط الساعة – يوسف الوابل ص١٦٢-١٦٣.

بعضهن تطلب الحاجات ـ التي لا تُطلب إلا من الله ـ من صاحب القبر، وقد سألت بعض من كان هناك فقال: إن الحسين لا يوجد أصلاً، وإنما يُروى أن رأسه فقط موجود، فقلت: وحتى لو كان موجوداً، هل يجوز أن تطلب منه حاجات لا تُطلب إلا من رب السموات، وقاضي الحاجات، ومجيب الدعوات. وقد حاولت أن أنكر على بعض الناس هناك فقال لي الأخ المرافق: لا فائدة من الإنكار، فإن هذا أيضاً موجود في مسجد السيدة زينب، والسيد البدوي، فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد افتتن الجهال في القرون الأخيرة بقبر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وأعادوا بذلك سيرة أهل الجاهلية في قبر اللات والعزى، فظهر بذلك مصداق قوله ﷺ: «**لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللات والعزى**».

وقبر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وإن لم يكن في موضع اللات نفسه، فإنه قريب وشبيه بما يُفعل به من الشرك بما كان يُفعل عند اللات والعزى. لأن كلاً منهما في ناحية من نواحي المسجد المسمى بمسجد ابن عباس، وقد قيل: إن موضع اللات في موضع المنارة من ذلك المسجد، وأما قبر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فمعروف مشهور.

وقد اتخذه الضلال من آخر هذه الأمة وثناً يعظمونه كما كان أهل الجاهلية يعظمون اللات من قبل، ويلجؤون إليه في قضاء الحاجات وتفريج الكربات.

قال الشيخ حسين بن غنام في كتابه «روضة الأفكار والأفهام»: «وفي الطائف قبر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقف عنده كل مكروب وخائف متضرعاً مستغيثاً، ونداء أكثر الباعة في الأسواق: اليوم على الله وعليك يا ابن عباس، ويسألونه الحاجات.

وذكر الشيخ حسين بن مهدي النعمي اليمني في كتابه «معارج الألباب» أنه سمع بعض الأفاضل يحدث أن رجلين قصدا الطائف من مكة المشرفة وأحدهما يزعم أنه من أهل العلم، فقال له رفيقه ببديهة الفطرة: أهل الطائف لا يعرفون الله، إنما يعرفون ابن عباس، فأجابه بأن معرفتهم لابن عباس كافية؛ لأنه يعرف الله، وإذا كانت هذه حال من يزعم أنه من أهل العلم فكيف بالعوام(١).

قلت: ومن مظاهر الشرك بالله والتي لا تقل خطراً عن عبادة صنم دوس ما انتشر حديثاً من اللجوء إلى السحرة والمشعوذين، سواء كان في الذهاب إليهم أو مخاطبتهم عن طريق قنوات السحر والشعوذة والإنترنت.

وهؤلاء أحدثوا شركاً لم تحدثه قريش، فإن قريشاً كانوا يعبدون مع الله ـ تعالى ـ الأصنام التي يعتقدون أنها تقربهم إلى الله زلفى، أما هؤلاء فإنهم يأمرونهم بالذبح لغير الله ـ تعالى ـ، وإهانة المصاحف وتدنيسها، وإرضاء الشياطين، بل إنهم يطلبون منهم السجود لغير الله ـ تعالى ـ، فأي شرك أعظم من هذا ـ والعياذ بالله ـ، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال ﷺ: **«من أتى ساحراً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»** وفي رواية **«لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»**. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥](٢).

وروى أبو داود والترمذي عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول

---

(١) إتحاف الجماعة للتويجري ٢/ ٢٢٦.

(٢) قال الترمذي: هذا حديث صحيح وصححه الألباني.

الله ﷺ: «إذا وقع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان» [قال الترمذي: هذا حديث صحيح وصححه الألباني].

ففي هذا الحديث بين لنا رسول الله ﷺ أن بعضاً من أمته سيعبدون الأصنام، فالذين بنوا المشاهد على القبور وقصدوها بالتبرك والتعظيم وطلب الحاجات، وقدموا لها النذور، وأقاموا لها الأعياد، فكل هؤلاء بمنزلة من عبد اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، بل أعظم، والذي يتحاكم إلى الطواغيت يكون مشركاً بالله ـ تعالى ـ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره: «هذا إنكار من الله ـ عز وجل ـ على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات في غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك كعب الأشراف، وقيل: إنها نزلت في جماعة من المنافقين، وقيل غير ذلك والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، فمن احتكم إلى غير الله ـ تعالى ـ فقد أشرك، قال جل وعلا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]. ويكون كمن عبد صنماً من دون الله ـ تعالى ـ.

وصدق رسول الله ﷺ حينما أخبر أن من أمته من سيعبد اللات والعزى قبل قيام الساعة والله أعلم وأحكم وصلى الله على نبينا محمد.

الحديث الثامن

«خروج القحطاني»

روى البخاري قال: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله قال: حدثني سليمان عن ثور بن نعيم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه**».

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح: «يدخل في علامة النبوة من جملة ما أخبر به ﷺ قبل وقوعه ولم يقع بعد».

وقوله: «**يسوق الناس بعصاه**»، قال القرطبي في التذكرة: «هذا كناية عن غلبته عليهم وانقيادهم له، ولم يرد نفس العصا، لكن في ذكرها إشارة خشونته عليهم وعسفه بهم، وقد قيل إنه يسوقهم بعصاه حقيقة كما تساق الإبل الماشية لشدة عنفه، قال ولعله جهجاه المذكور في الحديث الآخر، وأصل الجهجاه الصياح وهي صفة تناسب ذكر العصا.

قلت ـ أي ابن حجر ـ: ويرد هذا الاحتمال في إطلاق كونه من قحطان فالظاهر أنه من الأحرار، وتقييده في جهجاه وهو من الموالي.

ويؤيد ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يذهب الليل والنهارحتى يملك رجل من الموالي يقال له: جهجاه**».

وهذا القحطاني غير المهدي، فقد روى نعيم بن حماد في الفتن من طريق أرطأة بن المنذر أحد التابعين من أهل الشام، أن القحطاني يخرج بعد المهدي ويسير على سيرته، وأخرج أيضاً من طريق عبد الرحمن بن قيس بن جابر الصدفي عن أبيه عن جده مرفوعاً: «يكون بعد المهدي القحطاني والذي

بعثني بالحق ما هو دونه».

قال ابن حجر: «وهذا الثاني، وكونه مرفوعاً فإنه ضعيف الإسناد والأول كونه موقوفاً أصلح منه إسناداً».

فإن ثبت ذلك فهو في زمن عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ، لما روي أن عيسى ـ عليه السلام ـ إذا نزل يجد المهدي إمام المسلمين، وفي رواية أرطأة بن المنذر أن القحطاني يعيش في الملك عشرين سنة.

واستشكل هذا كيف يكون في زمن عيسى يسوق الناس بعصاه والأمر إنما هو لعيسى، ويجاب: بأنه يجوز أن يقيمه عيسى نائباً عنه في أمور عامة[1].

ويكون خروج القحطاني في آخر الزمان، بحيث تدين له الناس بالطاعة وتجتمع عليه، وذلك عند تغير الزمان، ولهذا ذكره الإمام البخاري في باب تغير الزمان، وكونه يسوق الناس بعصاه لا يعني بالضرورة أنه رجل قاس لا يرحم، وإنما ذلك كناية عن طاعته ورضوخهم لأمره، إلا أن ما أشار إليه القرطبي من خشونته عليهم، فإن ذلك ليس بالنسبة للجميع كما يظهر من كلامه، بل هو يقسو على أهل المعصية منهم، وإلا فهو رجل صالح يحكم بالعدل، ويؤيد ذلك ما نقله ابن حجر عن نعيم بن حماد، وأنه روي من وجه قوي عن عبد الله بن عمرو أنه ذكر الخلفاء ثم قال «**ورجل من قحطان**»، وأيضاً ما أخرجه بسند جيد عن ابن عباس أنه قال فيه: «**ورجل من قحطان كلهم صالح**» ولما حدث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ بأنه سيكون ملك من قحطان، غضب معاوية ـ رضي الله عنه ـ فقام فأثنى على الله ـ تعالى ـ بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإنه بلغني أن رجالاً منكم يتحدثون بأحاديث ليست في كتاب الله، ولا تؤثر عن رسول الله

(١) فتح الباري ٦/ ٦٣٠.

ﷺ، فأولئك جهالكم، فإياكم والأماني التي تضل أهلها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين**»[١].

قال ابن حجر في الفتح: «ولما خطب معاوية بذلك، دل على أن الحكم عندهم كذلك، إذ لم ينقل أن واحداً منهم أنكر عليه، ثم قال: ولا يلزم من عدم إنكارهم صحة إنكار معاوية[١].

فقد قال ابن التين: «الذي أنكره معاوية في حديثه ما يقويه لقوله: «**ما أقاموا الدين**» فربما كان فيهم من لا يقيمه، فيتسلط عليه القحطاني، وهو كلام مستقيم.

وإنما أنكر معاوية خشيته أن يظن أحد أن الخلافة تجوز في غير قريش، مع أن معاوية ـ رضي الله عنه ـ لم ينكر خروج القحطاني، فإن في حديث معاوية قوله: «**ما أقاموا الدين**»، فإذا لم يقيموا الدين خرج الأمر من أيديهم، وحصل هذا، فإن الناس ما زالوا في طاعة قريش إلى أن ضعف تمسكهم بالدين، فضعف أمرهم وتلاشى وانتقل إلى غيرهم[٣].

ثم قال ابن حجر في الفتح: ثم وجدت في «كتاب التيجان لابن هشام» ما يعرف فيه أنه ثبت اسم القحطاني وسيرته وزمانه.

فذكر أن عمران بن عامر كان ملكاً متوجاً، وكان كاهناً معمراً، وأنه قال لأخيه عمرو بن عامر المعروف «بمزيقيا» لما حضرته الوفاة: إن بلادكم ستخرب، وإن لله في أهل اليمن سخطتين ورحمتين:

---

(١) صحيح البخاري كتاب مناقب قريش ٦/ ٥٣٢ / ٥٣٣ .

(٢) فتح الباري ١٣/ ١٣٢.

(٣) انظر أشراط الساعة يوسف الوابل صـ ٢١٩ـ ٢٢٠ـ .

فالسخطة الأولى: هدم سد مأرب، وتخرب البلاد بسببه، والثانية: غلبة الحبشة على أهل اليمن.

والرحمة الأولى: بعثة نبي من تهامة اسمه محمد يرسل بالرحمة ويغلب أهل الشرك.

والثانية: إذا خرب بيت الله يبعث الله رجلاً يقال له شعيب بن صالح فيهلك من خربه، ويخرجهم حتى لا يكون بالدنيا إيمان إلا بأرض اليمن.

وقد روي أن البيت يُحج إليه بعد خروج يأجوج ومأجوج، وروي قوله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت وأن الكعبة يخربها ذو السويقتين من الحبشة»**. فينتظم من ذلك أن الكعبة إذا خربت خرج عليهم القحطاني فأهلكهم، وأن المؤمنين قبل ذلك يحجون في زمن عيسى بعد خروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم، وأن الريح التي تقبض أرواح المؤمنين تبدأ بمن بقي بعد عيسى، ويتأخر أهل اليمن بعدها، ويمكن أن يكون هذا ما يفسر به قوله: **«الإيمان يمان»** أي يتأخر الإيمان بعد فقده من جميع أهل الأرض.

وقد أخرج مسلم حديث القحطاني بعد حديث تخريب الكعبة ذو السويقتين ولعله رمز إلى هذا.

وقال ابن بطال: إن القحطاني إذا قام، وهو ليس من بيت النبوة ولا من قريش الذين جعل الله فيهم الخلافة، فهو من أكبر تغيير الزمان وتبديل الأحكام بأن يطاع في الدين من ليس أهلاً لذلك.

واستدل بقصة القحطاني على أن الخلافة يجوز أن تكون في غير قريش، وأجاب ابن العربي بأنه إنذار بما يكون في آخر الزمان من تسور العامة على منازل الاستقامة.

قلت: وقول ابن بطال هذا لا ينطبق بالضرورة على القحطاني المذكور بالحديث، ولكنه ربما أراد أن الزمان يتغير، ومع تغيره يتغير كل شيء،

بـل إن القحطاني يكون أميراً في آخر الزمـان، وتنقاد له الناس بالطاعة، واختيار النبي ﷺ لقحطان والله أعلم لأنها من أشرف قبائل العرب، حتى لا يقال: كيف يؤمر رجل على الناس ويقودهم بعصاه وينقادون له ونسبه غير معروف، ولذلك فإن النبي ﷺ فصل بينه وبين الجهجاه في حديث مستقل، والله أعلم بالصواب.

وصلى الله على نبينا محمد.

الحديث التاسع
«نطق السباع وعذبة السوط وشراك النعل»

روى الإمام أحمد والترمذي والحاكم في مستدركه عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس، وحتى تكلم الرجل عذبة صوته وشراك نعله وتخبره فخذه بما أحدث أهله من بعده»**.

قال الحاكم: صحيح الإسناد وعلى شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في تلخيصه، ورواه ابن حبان في صحيحه ولفظه: قال رسول الله ﷺ **«ألا إن من أشراط الساعة كلام السباع للإنس، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس ويكلم الرجل نعله وعذبة سوطه، ويخبره فخذه بحديث أهله بعده»**.

هذه الأحاديث بين فيها النبي ﷺ عن خبر مستقبلي يدل على نبوته ﷺ، فقوله: **«والذي نفسي بيده»** هذا قسم منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقسمه تأكيد للخبر، وهو الصادق ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى ولو لم يقسم.

وأخبر أنه لا تقوم الساعة حتى يقع ما ذكر من كلام السباع للناس وكلام السوط لصاحبه، وأن فخذه يكلمه فيخبره بما فعل أهله في غيبته.

وهذه الأمور تعد من خوارق العادات، حيث إن الأصل في السباع وعذبة السوط وفخذ الإنسان أنها لا تتكلم.

وعند اقتراب الساعة تتغير بعض النواميس في هذا الكون إيذاناً بقرب نهايته، فينطق الله ـ تعالى ـ الذي أنطق كل شيء هذه الأشياء، وهذا من

قدرته ـ جل وعلا ـ، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت: ٢١].

والـــذي هو أعجب من تغير النواميس في آخـــر الزمان كلام الذئب مع الراعي في عهد النبي ﷺ.

فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء ذئب إلى راعي الغنم فأخذ منها شـــاة، فطلبه الراعـــي حتى انتزعها منه، قال: فأقعى واســـتذفر فقال: عمدت إلى رزق رزقنيه الله ـ عز وجل ـ وانتزعته منـــي! فقال الرجل: تالله إني رأيت اليوم ذئباً يتكلم! قال الذئب: أعجب مـــن هذا الرجل في النخلات بين الحرتـــين يخبركم بما مضى وبما هو كائن بعدكم.

وهذا الرجل هو أهبان بن أوس الأســـلمي، وقيل: هو أهبان بن الأكوع ابن عياذ، جاء إلى النبي ﷺ وأخبره، فصدقه النبي ﷺ ثم قال: «**إنها أمارة من أمارات بين يدي الساعة، قد أوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى تحدثه نعلاه وسوطه ما أحدث أهله بعده**» [رواه الإمام أحمد وقال الهيثمي: رجاله ثقات].

فهذا الذئب الذي أخذ الشـــاة من الراعي قد أنطق الله الحق على لســـانه وهو حيوان لا يتكلم.

وكلام الذئب للرجل كلام واضح وبحروف مســـموعة، وبين يدي هذا الحديث العظيم وقفة تأمل، وهي أن الغرض من أخذ الذئب للشاة هو لفت نظر الراعي إلى الإيمان بالله ـ تعالى ـ، ولذلك لما استنكر كلامه قال: الذي أعجب من كلامي رجل بين النخلات، يقصد النبي ﷺ، فكان هذا الذئب داعية إلى الله ـ جل وعلا ـ.

وقد استنبطت من هذا الحديث بعض الفوائد:

الفائدة الأولى: أن كلام الحيوانات والجمادات ممكن، وذلك يدل على قدرة الخالق ـ عز وجل ـ، وأنه هو وحده المتفرد بهذه الكائنات والموجودات، فالذي خلقها هو وحده القادر على إنطاقها في المكان والزمان الذي يريده.

الفائدة الثانية: أن الذئب وهو حيوان غير مكلف وغير عاقل اعترف أن الرزق بيد الله ـ عز وجل ـ، فقوله: عمدت إلى رزق رزقنيه الله ـ عز وجل ـ، ففي هذا القول إرجاع الفضل إلى صاحب الفضل، فمن المعلوم بداهة أن رزق المخلوقات كلها على خالقها، قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦].

فسواء اعترف الذئب بأن الله هو الرازق أم لا فهذا لا يغير من الحال شيئاً فالرازق هو الله ـ تعالى ـ في جميع الأحوال، وهذا ليس غريباً على من بيده خزائن السماوات والأرض، لكن الغريب من البشر الذين كلفهم الله ـ تعالى ـ ورزقهم بغير حساب، ومنّ عليهم بنعمة العقل، وفضلهم على سائر المخلوقات، ثم هم لا يشكرون الله ـ عز وجل ـ على نعمه.

الفائدة الثالثة: أن دلالة الذئب على النبي ﷺ فيه معنى يجب الوقوف عنده، وهو السبب الذي من أجله أنطق الله الذئب فكلامه عجيب وغريب، ولذلك استغربه الرجل وهو خرق للعادة، لكن الذي أعجب منه إخبار الذئب للراعي بنبوة محمد ﷺ.

الفائدة الرابعة: ومن الفوائد إسلام الراعي بين يدي رسول الله ﷺ، ونلاحظ في هذا الحديث أن الراعي أسلم ثم أخبر النبي ﷺ بقصته مع الذئب، ومعنى ذلك أنه عندما سمع الذئب يقول: أعجب من كلامي رجل في النخلات بين الحرتين، دخل الإيمان في قلبه وإنما مجيئه إلى رسول الله ﷺ حتى يسلم بين يديه.

الفائدة الخامسة: أن كلام السباع للإنس في آخر الزمان كلام حقيقي وليس مجازي، وكذلك الفخذ وعذبة السوط وشراك النعل ودلالة الشجر والحجر على اليهود في آخر الزمان، ومن أنكر ذلك أو شك فيه فهو ممن يشك في إسلامه؛ لأنه لم يحقق الشهادة بأن محمداً رسول الله، ومن تحقيقها تصديقه ﷺ فيما أخبر من الغيوب الماضية والغيوب الآتية، قال ـ تعالى ـ عن نبيه ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم: ٣].

الفائدة السادسة: قول الذئب عن النبي ﷺ يخبركم بما هو مضى وبما هو كائن بعدكم، لقد تضمنت هذه العبارة علم الأولين والآخرين، فما قد مضى من نبأ الأولين من أخبار الرسل وأممهم والقصص الماضية وما فيها من فوائد وعبر وذكرى، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١٠٣] كل ذلك أخبرنا عنه النبي ﷺ، وأما قوله: «**وبما هو كائن بعدكم وما سيكون من أحداث**»، أخبر عنه النبي ﷺ، وبعضها لم يقع بعد، وسوف يرى وقوعه من يعيش من المسلمين إلى أن تقوم الساعة، كل ذلك أنبأنا عنه الرسول ﷺ، وهذا من أعلام نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وتكليم الفخذ وعذبة السوط وشراك النعل كل ذلك خارق للعادة، ولهذا يكون وجود ذلك دليل على اقتراب الساعة.

قال الشيخ حمود التويجري ـ رحمه الله تعالى ـ: «وقد سلك أحمد ابن محمد الغماري في كتابه «مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية» مسلكاً آخر في تأويل كلام السباع للإنس في آخر الزمان على السيرك الذي تستخدم فيه الأسود والنمور والفيلة وغيرها من السباع في الألعاب العجيبة والحركات الغريبة، وأنها تخاطب فتفهم، وتؤمر وتنهى حسب إرادة اللاعب بها، وتأول ذلك أيضاً على الكلاب التي تتخذ لاستكشاف

أصحاب الجرائم، وتأول الكلام من الفخذ وعذبة السوط وشراك النعل بالفنوغراف وآلة التسجيل وهو تأويل باطل[١].

قلت: أما التعامل مع حيوانات السيرك فلا يعد كلاماً حقيقياً، بل إنها تعلم وتفهم، أما ما عناه النبي ﷺ في كلام السباع: فالمقصود هو الكلام الذي يسمع ويفهم، مثل كلام الذئب للراعي.

والله أعلم.

(١) إتحاف الجماعة للشيخ التويجري٣/ ٢٢٤.

الحديث العاشر
«عودة أرض العرب مروجاً وأنهاراً»

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً**».

يُعد هذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ، حيث إنه ربط بين حقائق علمية وبين قيام الساعة، لتكون هذه الحقائق دليلاً على اقتراب يوم القيامة.

لقد كشف هذا الحديث حقائق جديدة في علم المناخ تشهد على صدق هذا النبي الأمي.

ومن الأشياء العجيبة في هذا الحديث أنه ﷺ دلنا على تأريخ الصحراء في الجزيرة العربية، أو على أرض العرب إجمالاً، ويحدثنا عن شيء سيحدث بعد فترة زمنية لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ، والذي قرأ هذا الحديث في العهد النبوي وما بعده إلى عهد قريب لا يمكن أن يتصور أن الصحراء ستنقلب مروجاً وأنهارًا، وأن هذه الصحراء كانت من قبل مغطاة بالأنهار والبحيرات والنباتات والمروج، لكن محمداً ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى أبلغنا معجزة تدل على صدقه، ولم تظهر إلا حديثاً.

قال النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في معنى عودة أرض العرب مروجاً وأنهاراً: معناه والله أعلم أنهم يتركونها ويعرضون عنها فتبقى مهملة لا تزرع ولا تسقى من مياهها، وذلك لقلة الرجال، وكثرة الحروب، وتراكم الفتن، وقرب الساعة، وقلة الآمال، وعدم الفراغ لذلك والاهتمام به[1].

---

(١) شرح النووي لمسلم (٧/ ٩٧).

والــذي يظهر أن ما ذهب إليه النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في شــرحه لهــذا الحديث فيه نظر، فإن أرض العرب أرض قاحلة شــحيحة المياة قليلة النبات غالب مياهها من الآبار والأمطار، فإذا تركت واشــتغل عنها أهلها مات زرعها ولم تعد مروجاً وأنهاراً.

وظاهــر الحديث يدل على أن بلاد العرب ســتكثر فيها المياه حتى تكون أنهاراً، فتنبت بها النباتات فتكون مروجاً وحدائق وغابات.

والذي يؤيد هذا أنه في هذا العصر انفجرت عيون كثيرة كالأنهار وقامت عليها زراعات كثيرة، وسيحصل ما وعد به الصادق ﷺ.

فقد روى معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ أن رســول الله ﷺ قال في غزوة تبوك: **«إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يَجيء النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شـيئاً حتى آتي»**. فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان والعين مثل الشراك[1] تبض[2] بشيء من ماء.

قال: فسألهما رسول الله ﷺ: **«هل مسستما من مائها شيئاً؟»** قالا: نعم. فسبهما رسول الله ﷺ وقال لهما «ما شاء الله أن يقول».

قــال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شــيء، قال: ثم غسل رسول الله ﷺ يديه فيه ووجهه، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر. أو قال غزير، حتى استسقى الناس، ثم قال النبي ﷺ **«يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جناناً»**[3].

فهذا رســول الله ﷺ بين لنا في هذا الحديث الصحيح أن جزيرة العرب

(١) الشراك: سير النعل.

(٢) أي: تسيل ماءً.

(٣) صحيح مســلم كتاب الفضائل باب معجزات النبي ﷺ ١٥/ ٤٠ ـ ٤١. وانظر: يوســف الوابل، أشراط الساعة.

ســـوف تمتلئ جناناً من كثرة ما يوجد بها من الماء، وهذا الحديث بشارة منه ﷺ.

ومن خلال الاســـتقراء العلمي التاريخي للجزيرة العربية نجد أن الظروف المناخية قبل ١٤٠٠ سنة لم تختلف كثيراً عن اليوم.

وعندما نتوغل أكثر في تاريخ الجزيرة العربية المناخي لا نجد أيضاً إشـــارة إلى أن الأمم الســـابقة من العرب العاربة والمســـتعربة أو حتى العرب البائدة كانوا يتقلبون بأجواء رطبة غنية بأمطارها وأنهارها وأزهارها بخلاف ما عليه الحال بقارة أوروبا اليوم.

ولم تكن الحال بجزيرة العرب بخلاف ما هي عليه الآن قبل ٢٥٠٠ سنة تقريبا، فلم تكن مروجاً وأنهاراً، بل صحراء وجفاف وآبار متواضعة.

والذي يدل عليه قصة موســـى ـ عليه الســـلام ـ مـــع مدين قال تعالى ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: ٢٣].

وعندمـــا نتوغل أكثر فـــي القدم، نجد أن الظروف الســـائدة في الجزيرة العربية كما وصفها إبراهيم ـ عليه الســـلام ـ فـــي قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وقبل نبي الله إبراهيم كان صالح ـ عليه الســـلام ـ قال تعالى: ﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وهذا والله أعلم يعكس الظـــروف المناخية الجافة والصحراوية في أرض العرب.

ولم يذكر التاريخ القديم أن سكان الجزيرة العربية من العرب البائدة ومن قبلهم أنهـــم كانوا ينعمون بالمروج والأنهار، والســـؤال هنا: ما هي الفترة

الزمنية التي كان الرسول ﷺ يقصدها؟

قال بعض علماء المناخ والطبيعة: إن الظروف المناخية الجافة والقاحلة والحارة للجزيرة العربية كانت هي السائدة، والفترة الزمنية التي كانت حافلة بالأنهار والمروج والأنهار كانت قديمة جداً.

والعجيب أن رسول الله ﷺ لم يقل: «حتى تأتي مروجاً وأنهارًا» بل قال «حتى تعود» ومن ذلك نستفيد أنها كانت كذلك وأنها ستعود إلى ما كانت عليه، وهذا ما يقوله العلماء وصوروه بأجهزتهم.

ولذلك نحن اليوم أمام حقيقة يقينية لا يمكن لأحد أن ينكرها أو يشك في صدقها، لقد وجد الدكتور فاروق الباز أن نهراً يمتد لمسافة طويلة دفنته رمال الصحراء في الربع الخالي، وأن هذا النهر كان موجوداً قبل ستة آلاف سنة، وكان يبلغ عرضه ٨ كيلو متر وطوله يمتد ليعبر قلب الجزيرة العربية.

لقد حصلت وكالة ناسا عام ١٩٩٣ على صور تدل على أنهار مدفونة تحت الرمال، وأثبت العلماء بواسطة هذه الصور أن الجزيرة العربية كانت مروجاً وأنهاراً، وأنها أشبه بأوروبا اليوم، ويقول العلماء إن هذه المناطق التي أهملها الناس لاعتقادهم أنها صحراء جرداء منذ أن خلقت ولا يمكن لشيء أن يوجد فيها.

وهنا نتساءل: من الذي أوحى لمحمد ﷺ بهذه المعلومة التي لم يكتشفها العلم إلا حديثاً؟ حيث يؤكد العلماء لنا أن هذه الأنهار لا بد أن تعود يوماً بسبب التغيرات المناخية الحالية.

وهنا يطرح سؤال مهم: لماذا حدثنا النبي ﷺ بهذه الحقيقة الكونية وربطها بيوم القيامة؟ وما الذي دعاه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو النبي الأمي إلى كلام عن هذه الظاهرة الكونية الفريدة؟

ونقول: إنما هي رد مادي على أولئك الملحدين الذين يدعون أن النبي ﷺ نقل معلوماته من الكتب السابقة، أو كما قال عنه الكفار في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝﴾ [الفرقان: ٥ ـ ٦]. وكأن النبي ﷺ يخاطب هؤلاء الملحدين، ويقول لهم اعلموا أن الساعة آتية، وأن الله ـ تعالى ـ سوف يهيء لكم أحداثاً وظروفاً وتغيرات كونية تدل على اقتراب الساعة، فهل تعودون إلى كتاب ربكم ـ جل وعلا ـ وسنة نبيكم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وكما هو معلوم أن الصور التي التقطتها الأقمار الصناعية للجزيرة العربية وللربع الخالي الذي يعد أكثر المناطق خلواً، وأنها تحوي آثار الأنهار والمروج والبحيرات، كما أن هناك ظاهرة أخذت بالانتشار في الجزيرة العربية بصفة عامة، وهي كثرة تساقط الأمطار والثلوج، فقد ذكر تقرير بثته قناة العربية أن أهالي الباحة في المملكة العربية السعودية الذين لم يروا الثلج منذ مدة طويلة استيقظوا على هطول أمطار غزيرة تبعتها ثلوج، وانخفضت درجة الحرارة إلى ما دون الصفر، كذلك الحال كان في منطقة تبوك وغيرها من مناطق المملكة.

وإذا انتقلنا إلى موضوع آخر فإنه انتشر بين علماء المناخ هذه الأيام نظرية مفادها: أن ظاهرة الاحتباس الحراري قد تسبب حصول مشاكل كبيرة .

فالاحتباس الحراري الناتج عن كميات كبيرة من غازات تعمل على إحداث ثقوب في طبقة الأوزون، مما يؤثر بدوره على ذوبان الجليد الموجود بالقارة المتجمدة الشمالية، وهذا إثبات علمي وموثق.

وذوبان الجليد هذا سيكون له آثار سلبية وانعكاسات على منطقة شمال الأطلسي، وسيزيد من نسبة المياه العذبة، أي ستقل ملوحة المحيط.

وانحسار الجليد سيؤدي إلى توســع المنطقة البحرية مقارنة بالمتجمدة مما يؤدي إلى مزيد من التبخر، ومن المعروف أن جزءاً من مياه المحيط متجمد، ولكن عندما يتجمد الماء المالح فإن الثلج يكون ماء عذباً.

وهذا ســيؤدي إلى ازدياد المياه العذبة ، وفي المقابل ستتشــهد المحيطات والبحار زيادة وارتفاعاً في مســتواها، حيث ســتغمر هذه المياه الكثير من الأراضي المنخفضة، وإذا ارتفع مســتوى ماء البحر فإنه ســيؤثر على التربة الزراعية ويفســدها بسبب ارتفاع منسوب المياه المالحة، وهذا ما ذكره علماء الطبيعــة والمناخ عن هذه الظاهرة الحديثــة التي أثرت بدورها على الجليد، وهذا والله أعلم له علاقة بما أرشــدنا إليــه النبي ﷺ من أن أرض العرب ســتعود مروجاً وأنهاراً، والله ـ تعالى ـ القادر على كــل شيء، قــال الله ـ تعالى ـ في القرآن الكريم ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبيــاء: ١٠٤]. وقال سبحانه ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وعلمــاء الجغرافيا والجيولوجيا قد نظروا وتفكروا، وقدروا عمر الأرض بحوالي ٤,٦ بليون ســنة والله أعلم، وقسم العلماء هذه العصور الطويلة إلــى عصور متمايزة، يهمنا منها العصــور الجليدية التي تتصف بأنها حالة جوية دورية، تتميز بالبرد القارس، وهذه الحالة تسود شمال الكرة الأرضية وجنوبها مما يؤدي إلى تجمدها وانتشار الغطاءات الجليدية وزحفها إلى أماكن شاسعة جديدة تفوق مساحتها الحالية بثلاثة أضعاف مساحة الجليد الحالي، ١٠٪ من مســاحة اليابس، بينما في العصــر الجليدي ٣٠٪ ، وفي نصف الكرة الشمالي تتسع الغطاءات الجليدية لتزحف باتجاه الجنوب لتغطي شمال أوروبا وروسيا وأمريكا الشمالية، لتصبح أرضاً متجمدة، وفي المقابل تصبح المناطق الجنوبيــة منها مناطق معتدلة ورطبة، وهي العروض شــبه المدارية

والصحراويــة مثل الجزيرة العربية وشــمال أفريقيا، وهذه العصور الجليدية المتكررة وفق ســنن إلهية عندما تحدث بإذن الله تكون أرض العرب مروجاً وأنهاراً، وعندما تنحسر تكون أرض العرب صحراء قاحلة.

وأثبت العلماء أننا نعيش اليوم في عصر دفئ يقع بين عصرين جليديين، بمعنى أن الأرض مقبلة على عصر جليدي جديد؛ امتداداً للعصور الماضية، وآخر عصر مطير في أرض العرب كان قبل عشــرة آلاف سنة تقريباً، وقد يكون هو المعني بالحديث، والله أعلم.

وفي منتصف القرن العشــرين بدأ العلماء يدرســون ما يســمونه دورة الطقس، أو دورة المناخ، ووجدوا أن هناك دورة للكرة الأرضية ليس حول نفســها أو حول الشمس، بل إن محور الأرض يدور حول نفسه. فالأرض الآن تميــل أثنــاء دورانها على محورها بحــدود ٢٣درجة ونصف عن هذا المحور، وبســبب هذا الميلان ينشــأ كما هو معلوم الصيف والشتاء والربيع والخريف.

ولكن هذا المحور قبل آلاف السنين كانت درجة ميلانه أكبر مما هي عليه اليوم وقبل ذلك كانت أكبر.

ولذلك كانت الأرض كما أســلفت تمر بعصور تسمى العصور الجليدية، ومنذ أكثر من ٢٠ ألف ســنة كانت أوروبــا مغطاة تماماً بطبقات من الجليد يبلغ سمكها مئات الأمتار، وحدث هذا في العصر الجليدي.

وبدأ علماء ناســا في رحلتهم حول كوكب الأرض باستكشــاف المناطق الأثرية، والمناطــق التي تحوي الثروات الطبيعية مثل الغاز والبترول وغيره، وأثناء بحثهم وجدوا في صحراء الربع الخالي التي تمتد آلاف الكيلومتــرات ـ والتي تخلو من البشر، ويستحيل على عقل إنسان تصور أن هذه المناطق كانــت ذات يوم مغطاة بالمروج والأنهار والغابات الكثيفة ـ اكتشــفوا آثاراً

وأحافير تدل على أن هذه المنطقة كانت خصبة كثيرة المياه والأنهار والبحيرات، وقد اكتشفوا ذلك عن طريق تقنيات حديثة بالمسح عن بعد.

وقد ذكر أحد الباحثين وهو دكتور بريطاني في أطروحته للدكتوراة أن منطقة الربع الخالي تشكلت قبل حوالي مليون سنة.

ولكن الصحراء لا تبقى على حالها، ولكنها تتبع نظاماً جيولوجيّاً مدهشاً، حيث لاحظ أن الأنهار والغابات تغطي هذه المناطق كل فترة من الزمن، وأثناء التقاط وكالة ناسا بالأشعة تحت الحمراء، واستخدام كل التقنيات الحديثة وجدوا أشياء عجيبة، فقد وجدوا أن هذه المناطق فيها آثار كثيرة لأنهار قديمة كانت تتدفق بغزارة، ووجدوا آثاراً لبحيرات كثيرة.

وقد ذكر فريق البحث العلمي الذي مسح المنطقة أنهم عثروا على أسنان لفرس النهر، وكانت بحالة جيدة، وعثروا على آثار لمخلوقات نهرية أخرى كانت ترعى في هذه المناطق.

ورجح الدكتور أن تعود الأمطار والمروج والأنهار في المستقبل مع أنه لم يقرأ هذا الحديث ولم يطلع عليه.

وفي اكتشاف حديث لهيئة المساحة الجيولوجية ذكر الدكتور ماهر إدريس: أن فريق العلماء المشاركين في الرحلة العلمية الاستكشافية لصحراء الربع الخالي، والتي نظمتها الهيئة لمدة ١٣ يوماً عثر على بحيرة كبيرة من المياه العذبة تبعد مسافة ٥٠ كيلومتر شمال شرق منطقة الحصان الواقعة على الأطراف الشرقية للمملكة باتجاه الحدود مع الإمارات، وبين الفريق أن البحيرة تقع ضمن منطقة سبخية تعرف باسم (مطي) وتمتد مسافة ٣ كيلومتر باتجاه الشرق، وتتكون من ثلاثة ينابيع حارة متوازية، والمياه الخارجة من هذه الينابيع على شكل متعرج باتجاه الشرق بطول ٢٠٠ متر وارتفاع ١٥ سم عن سطح الأرض.

وقال الدكتـــور: إنه تم رصد بعض النباتـــات والطيور بالقرب من هذه المجاري المائية لهذه الينابيع.

وهي مياه حلوة تم قياس ملوحتها بواســطة المعمل المتنقل للهيئة، حيث بلغــت درجة الملوحة فيها ٤٠٠ جزء من المليون ونســبة الكبريت بها غير عالية. ودرجة حرارتها تقريباً ٣٠ درجة مئوية، ويعتقد أنها قادمة من باطن الأرض. وهذا لا شــك اكتشــاف علمي، ويرجح أن هذه المياه قد تحتوي على مســتودع مائي كبير للمياه العذبة، وقد يستفاد منها في تغذية المناطق الشرقية، وتعتبر تعزيزاً للأمن المائي في البلاد.

وأكد الدكتور إدريس أن البحيرة المكتشــفة لم تكن معلومة في السابق، غير أن الدراســات الماضية وصور الأقمار الصناعية جعلت الهيئة تعتبر هذه المناطق مستهدفة، وأكد أن الفريق لم يتوقع وجود هذه الكميات الكبيرة من المياه على هذا العمق القريب من سطح الأرض.

وبهذا يتبين لنا أن أرض العرب ســوف تعود مروجاً وأنهاراً كما أخبرنا بذلــك النبي ﷺ، وأن هذه الحقائــق العلمية الحديثة تؤيد ما دلنا عليه هذا النبي الأمي الذي لا ينطق عن الهوى.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الحديث الحادي عشر
«المدينة تنفي شرارها وخبثها»

روى الإمام مسلم في الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد»**.

قال العلماء: خبث الحديد والفضة هو وسخها وقذره التي تخرجه النار منهما.

قال الدكتور أحمد عمر هاشم ـ جزاه الله خيراً ـ: «هذا الحديث الشريف من معجزات النبي ﷺ، لأنه أخبرنا عن أمر غير موجود، بل إنه غائب عنه لم يحدث من قبل، وقد حدث ووقع ما أخبر به النبي ﷺ، إذ إن مراده أن الأمصار ستفتح ويكثر الخير كما حدث في فتح العراق والشام وغيرهما، وعندئذ يركن كثير من الناس إلى تلك الأمصار المفتوحة، ويرغبون فيها لما فيها من سعة العيش، ويتخذون منها بلاداً لهم، ويدعو كل منهم من كان بالمدينة من قريب له كما أخبر الحديث بهذا، وذلك لشدة العيش وضيقه بالمدينة.

روى البخاري ومسلم من حديث سفيان بن أبي زهير ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول **«تفتح اليمن فيأتي قوم يبسون**[(١)] **فيحتملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح الشام فيأتي قوم يبسون فيحتملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح العراق فيأتي قوم يبسون فيحتملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة**

---

(١) ومعنى يبسون: قال النووي: الإخبار عمن خرج من المدينة متحملاً بأهله وقال ابن عبدالبر: وقيل معنى يبسون: يسألون عن البلاد ويستقرئون أخبارها.

خير لهم لو كانوا يعلمون»[1].

قال العلماء: في هذا الحديث معجزات للنبي ﷺ، لأنه أخبر بفتح هذه الأقاليم، وأن الناس يحتملون بأهليهم إليها ويتركون المدينة، وأن هذه الأقاليم تفتح بهذا الترتيب، ووجد جميع ذلك كله بحمد الله وفضله.

وفي الحديث: فضل سكنى المدينة والصبر على شدتها وضيق العيش فيها. فعن أبي هريرة ـ رضي الله ـ عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يأتي زمان على الناس يدعو الرجل ابن عمه وقريبه: هلم إلى الرخاء هلم إلى الرخاء، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، والذي نفس محمد بيده لا يخرج أحد رغبة عنها إلا أبدلها الله فيها خيراً منه، ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبيث، ولا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد»**.

قال النووي في تعليقه على الحديث الأول: «الصواب الذي عليه المحققون أن معناه الإخبار عمن خرج من المدينة متحملاً بأهله بأساً في سيره، مسرعاً إلى الرخاء والأمصار التي أخبر عنها النبي ﷺ.

وإن مباهج الحياة الدنيا وزينتها تخدع الناس وتشد قلوبهم وترغبهم بالخروج من المدينة إلى تلك البلاد، ابتغاء الحياة الدنيا وزينتها.

والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وإنما كانت المدينة خيراً لهم لأن الخير النافع والحقيقي إنما يكون بما يتصل بأمر الدين والحياة الأخرى، فهي الباقية والمستمرة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الإقامة في المدينة فيه خير كثير؛ لأنها بلد مباركة وبقعة مشرفة، فهي المكان الذي اختاره الله ـ تعالى ـ مهاجراً لرسوله ﷺ، وأهلها هم الذين أووا واستقبلوا ونصروا النبي ﷺ والمهاجرين، وآثروا إخوانهم على أنفسهم وهم أهل حاجة كما وصفهم الله تعالى فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ

(١) البخاري ٤/ ٩٠ . (١٨١٧٥) .

هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ [الحشر: ٩].

ثم يوضح الحديث أن من يرغب عن المدينة ويخرج منها يخلف الله فيها ويبدلها خيراً منه.

والذي يخرج منها إما أن يكون لا خير فيه، فخروجه خير من بقائه فيها، أو يكون جاهلاً بفضل البقاء فيها وبركة أرضها، ولا شك ممن أقام فيها ممن يعلم فضل المقام ويعلم حرمتها ومكانتها خير من هذا وذاك، وهو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام «**لا يخرج أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه**».

وأما من خرج منها لمصلحة دينه فلا يدخل والله أعلم في قوله: «**إلا أخلف الله فيها خيراً منه**»، وذلك لأن الخروج هنا ليس رغبة عنها وإنما مصلحة دينية يمكن أن تفوت في البقاء، كمن خرج من الصحابة للتعلم والتعليم أو الجهاد أو لنشر الدعوة ونحو ذلك.

أما قوله ﷺ: «**إن المدينة تنفي شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد**» فقد قال القاضي عياض ـ رحمه الله تعالى ـ: «الأظهر أن هذا مختص بالنبي ﷺ، لأنه لم يصبر على الهجرة والمقام معه إلا من ثبت إيمانه، أما المنافقون وجهلة الأعراب فلا يصبرون على شدة المدينة ولا يحتسبون الأجر في ذلك كما قال الأعرابي الذي أصابه الوعك: أقلني بيعتي. وإنما قال الأعرابي للنبي ﷺ: أقلني بيعتي؛ لأنه لم يصبر على ما أصابه من لأواء، واستأذن النبي ﷺ بالخروج فلم يأذن له، فلما خرج منها قال النبي ﷺ: «**إن المدينة تنفي شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد**» أو قال في رواية: «**إنما المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها**» أي: يصفو ويخلص، والناصع هو الصافي

الخالص، والمعنى يخرج من المدينة من لم يصفو إيمانه».

وقال النووي ـ رحمه الله ـ رداً على القاضي عياض: «وهذا الذي ادعاه أنه الأظهر ليس بالأظهر؛ لأن هذا الحديث الأول في صحيح مسلم وهو قوله: **«لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد»**، وهذا والله أعلم في زمن الدجال كما جاء في الحديث الذي ذكره في أواخر الكتاب من أحاديث الدجال أنه يقصد المدينة فترجف ثلاث رجفات يخرج الله منها كل كافر ومنافق.

فيحتمل أنه مختص بزمن الدجال، ويحتمل أنه في أزمنة متفرقة، والأظهر أن النفي يكون عاماً في زمن النبي ﷺ وفي أزمنة متفرقة؛ لأن هذا هو الأليق بتلك المدينة المباركة»[1].

وقد يعترض على أن المدينة تنفي شرارها أن المنافقين استقروا بها، ويجاب على ذلك بأنهم نفوا منها بالموت، وهو أشد نفي؛ لأنه لا رجوع بعده إلى المدينة ولا إلى غيرها.

وأما ما روي عن النبي ﷺ في فضائل المدينة، فقد أخرج البخاري ـ رحمه الله ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»**.

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح: «"يأرز" بفتح أوله وسكون الهمزة وكسر الراء وقد ضم بعدها الزاي، وحكى ابن التين عن بعضهم فتح الراء وقال: إن الكسر هو الصواب، ومعناه ينضم ويجتمع».

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «قال القاضي: معناه أن الإيمان أولاً وآخراً بهذه الصفة؛ لأنه بأول الإسلام كان كل من خلص إيمانه وصح إسلامه أتى المدينة إما مهاجراً مستوطناً، وإما شوقاً إلى رسول الله ﷺ، ثم من بعده

(١) شرح مسلم للنووي.

في زمن الصحابة، ولأخذ سيرة العدل منهم، ثم من بعدهم من العلماء والذين كانوا أئمة الهدى، فكان ثابت الإيمان منشرح الصدر يرحل إلى المدينة لزيارة قبر النبي ﷺ»(١).

وقوله «**كما تأرز الحية إلى جحرها**» أي أنها تنتشر من جحرها في طلب العيش، فإذا راعها شيء عادت إلى جحرها.

كذلك الإيمان انتشر في المدينة، وكل مؤمن له في نفسه سائق إلى المدينة لمحبته إلى النبي ﷺ، فيشمل ذلك جميع الأزمنة، لأنه في زمن النبي ﷺ للتعلم منه، وفي زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم للاقتداء بهديهم.

ومن بعد ذلك شدّاً للرحال للصلاة في مسجده ﷺ.

قال الشيخ عبد الله بن جبرين ـ رحمه الله تعالى ـ في شرح هذا الحديث كلاماً فريداً، قال: جاء في هذا الحديث في فضل المدينة أن الإيمان يأرز أي يرجع إليها. فلو قدر مثلاً أن خرج منها من أهل الإيمان، فلا بد أن يرجع إليها بدلاً منهم غيرهم. وهذا تزكية لأهل المدينة، والمراد بهم الحاملون حقّاً لسنة رسول الله ﷺ، أي لا بد أن يكون فيها علماء ومؤمنون وأتقياء وعباد، ولا تخلو في وقت من الأوقات فيها ممن يعلم الناس الخير.

ثم قال ـ رحمه الله تعالى ـ: ومن تتبع أخبار المدينة منذ العهد النبوي إلى زماننا هذا يجد أنها لا تخلو من عباد وزهاد، ولا ينفي أن يكون فيهم منافقون وعصاة ونحوهم، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة: ١٠١].

فدل ذلك على وجود منافقين وروافض وعصاة(١).

---

(١) شرح مسلم للنووي ١/ ٢/ ١٧٧.

(٢) موقع الشيخ عبد الله بن جبرين ـ رحمه الله تعالى ـ.

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ في معنى أن الإيمان يأرز إلى المدينة: «فيه إشـــارة منه ﷺ أن هذا الدين سوف يرجع إلى المدينة بعد أن تفســد البلدان الأخرى، كما أن الحية تخرج وتنتشر في الأرض ثم ترجع إلى جحرها».

وفيه إشـــارة إلى أن الإسلام كما انطلق من المدينة فإنه يرجع إليها، فإن الإسلام بقوته وسلطته لم ينتشر إلا من المدينة، وإن كان أصله نابعاً من مكة وهي المهبط الأول للوحي، لكن لم يكن للمســلمين دولة وسلطان وجهاد إلا من بعد ما هاجروا إلى المدينة، ولهذا كان الإسلام بسلطته ونفوذه وقوته منتشراً في المدينة، وسيرجع إليها في آخر الزمان».

ثم قال الشـــيخ ـ رحمه الله تعالى ـ: «وقال بعض أهل العلم: إن هذه إشارة إلى أمر سبق بأن الناس يعودون إلى المدينة ويرجعون إليها ليتلقوا من رسول الله ﷺ الشريعة، ولكن المعنى الأول هو الأظهر والله أعلم»[١].

وإنما رغب الرسول ﷺ بالبقاء في المدينة بالإضافة إلى ما فيها من إرث دينــي، وما يوجد فيها من البركة، فقد روي عنه ﷺ أنه قال «**اللهم اجعل فــي المدينة ضعف ما جعلته في مكة من البركة**» والحديث رواه أنس ـ رضي الله عنه ـ وأخرجه البخاري ـ رحمه الله ـ.

وعن عبد الله بن زيد ـ رضي الله عنه ـ أن رســول الله ﷺ قال: «**إن إبراهيــم حرم مكة ودعا لها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ لمكة**» [رواه البخاري ومسلم].

وعن عائشــة ـ رضي الله ـ عنها قالت: قال رســول الله ﷺ: «**اللهم حبــب إلينــا المدينة كحبنا مكة أو أشــد، اللهم بارك لنا بمدنــا وصاعنا وصححها لنا وانقل حُمّاها إلى الجحفة**» [رواه الشيخان].

---

(١) فتاوى الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ.

ومن بركة المدينة ما سيأتي بيانه وشرحه، فمن بركتها زيارة المسجد النبوي، فالذي يدخل هذا المكان الطاهر يستحب له أولاً أن يصلي تحية المسجد في الروضة إن أمكن؛ لأنها أفضل بقاع المسجد، فإن لم يتيسر للزحام ونحوه فليصل حيثما تيسر له ذلك.

ثم يتوجه لقبر النبي ﷺ ويسلم عليه.

قال النووي في «المناسك»: «إذا صلى التحية في الروضة أو غيرها من المسجد شكر الله ـ تعالى ـ، ثم يأتي القبر الكريم غاض الطرف فارغ القلب من علائق الدنيا، ثم يسلم ولا يرفع صوته فيقول السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، ثم يتحول عن يمينه قليلاً فيسلم على أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ثم يتحول عن يساره قليلاً فيسلم على عمر الفاروق ـ رضي الله عنه ـ»[1].

قال ابن حجر الهيثمي: «جاء عن ابن عمر وغيره من السلف الاقتصار جدّاً ـ أي في وقوفه عند القبر والسلام على النبي ﷺ ـ ومال إليه الطبري فقال: «إن أطال الزائر بالدعاء فلا بأس ولكن الاتباع أولى من الابتداع».

واستدل بقول الحليمي: «لولا قول النبي ﷺ «**لا تطروني**» لوجدنا فيما نثني عليه ما تكل الألسن عن بلوغ مداه، لكن اجتناب منهيه خصوصاً بحضرته أولى».

قال النووي في المجموع: «ولا يجوز أن يطاف بقبره ﷺ ويكره مسحه باليد أو تقبيله، وهذا هو الصواب الذي قاله العلماء، ولا يغتر بمخالفة العوام والجهال، فإن الإقتداء والعمل يكون بالأحاديث الصحيحة وأقوال العلماء».

---

(١) المناسك مع حاشية الإيضاح للنووي ص ٤٤٧.

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»**.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم»** [رواه أبو داود بإسناد صحيح].

وقال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: «اتبع طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة، ولا تغتر بكثرة الهالكين، ومن خطر بباله أن المسح باليد ونحوه أبلغ في البركة، فإنه في ضلالة وغفلة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «القاعدة الجليلة في التوسل والوسيلة» ما نصه: «ومذهب الأئمة الأربعة مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد أن الرجل إذا سلم على النبي ﷺ وأراد أن يدعو لنفسه فإنه يستقبل القبلة».

وقال النووي في الإيضاح: كره مالك ـ رحمه الله تعالى ـ لأهل المدينة كلما دخل أحدهم المسجد وخرج الوقوف بالقبر، قال: وإنما ذلك للغرباء.

ثم قال: «ولا بأس لمن قدم منهم من سفر أو خرج إلى سفر أن يقف بقبر النبي ﷺ فيصلي عليه ويدعو لأبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ».

قال الباجي: «فرق مالك بين أهل المدينة والغرباء لأن الغرباء قصدوا لذلك وأهل المدينة مقيمون بها، وقال النبي ﷺ: **«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»** وحرم الرسول ﷺ المدينة مثل ما حرمت مكة فقال: **«اللهم إني أحرم ما بين لابتيها بمثل ما حرم إبراهيم مكة»**.

فقد حرم الرسول ﷺ أن يقتل صيدها أو يقطع شجرها، والمقصود بلابتيها: هذا فيه حد للحرم من المشرق والمغرب.

وفـــي رواية: «مابين جبليها» ورواية أخرى «ما بين حرتيها» ولا تعارض ما بين هذه الروايات.

وحكم المدينة في اللقطة كحكم مكة في اللقطة أيضاً، فلا تلتقط ساقطتها إلا بقصد التعريف، كما أنه لا يجوز إحداث أمر في الدين في المدينة بنشر الآراء المحدثة والبدع المضلة، ويشـــمل ذلك ترويـــع أهلها وإيذائهم ظلماً وعدونـــاً، لذلك قال الرســـول ﷺ: **«المدينة حـرم فمن أحدث فيهـا حدثاً أو آوى محدثـاً لعنه الله والملائكة والناس أجمعـين ولا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل»**[1].

كما أنه من بركة المدينة أن الله ـ تعالى ـ حرم على الدجال أن يدخلها وأبوابها محمية بالملائكة الكرام، والسيوف بأيديهم مصلتة.

عـــن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: **«ليس من بلد إلا سـيطؤه الدجال إلا مكة، ليس من نقابها نقب إلا عليه ملائكة يحرسـونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر ومنافق»** [رواه البخاري ومسلم وغيرهما].

ومـــن فضائل المدينـــة أن الرجل الذي يحاج الدجـــال ويقف في وجهه ويكذبـــه هو من أهلهـــا، ففي الصحيحين من حديث أبي ســـعيد الخدري ـ رضـــي الله عنـــه ـ قال: حدثنا رســـول الله ﷺ يوماً حديثاً طويلاً عن الدجـــال فكان فيما حدثنا به أنه قال: **«يأتي الدجال وهو محرم عليه أن يدخل شـعاب المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس ـ أو من خيار الناس ـ فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته هل تشـكون في الأمر؟ فيقولـون: لا، فيقتله ثم يحييه فيقول: والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم، فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه»**[2].

---

(١) صحيح مسلم (١٣٧١).

(٢) البخاري ١٣/١٠١ رقم (٧١٣٢) ومسلم (٢٩٣٨).

ومن فضائل المدينة وبركتها أن الله ـ تعالى ـ حرم عليها الطاعون كما حرم عليها الدجال، فقد روى البخاري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ أخبر أن المدينة لا يقربها الدجال ولا الطاعون.

والأحاديث في ذلك مطلقة لم تقيد بزمن معين، فدل هذا الإطلاق على استمرار حمايتها من هذا الوباء أبد الدهر، وهذه الخاصية اختص الله المدينة بها[١].

وقد دل الواقع على صحة هذا، فلم ينتشر وباء الطاعون قط بطابة الطيبة من ذلك العهد إلى يومنا هذا، وهذا من أعلام نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وهناك إشكال قد يرد على البعض، فقد ثبت أن المدينة لا يدخلها الدجال ولا الطاعون، وقد صح أن الطاعون شهادة ورحمة فإذا كان شهادة ورحمة فكيف يقترن بالدجال؟ وكيف مدحت المدينة الشريفة أنه لا يدخلها؟

والجواب عن ذلك: قال الحافظ: «إن كونه شهادة ورحمة ليس المراد بوصفه بذلك ذاته، وإنما المراد أن ذلك يترتب عليه وينشأ عنه، وأنه سببه، فإذا تقرر ذلك ظهر مدح المدينة أن كفار الجن لا يدخلونها، ومن اتفق دخوله إليها منهم فإنه لا يتمكن من أذى أهلها بالطعن حماية من الله منهم.

فقد روى أبو موسى الأشعري عنه ﷺ أنه قال: «**فناء أمتي بالطعن والطاعون**» قال: فقلنا يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال: «**طعن أعدائكم من الجن**» وفي رواية: «**وخز أعدائكم من الجن**»[٢].

(١) انظر كتاب الدرر الثمينة في خصائص المدينة.

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد وغيره، انظر المسند ٦/ ١٣٥، ٤/ ٤١٧.

ومـــن بركتها أن النبـــي ﷺ دعا على الحمّى بإخراجهـــا من المدينة إلى الجحفة، فقد صح عنه ﷺ أنه قال: **«اللهم بارك لنا في مدنا وصاعنا وصححها لنا وانقل حُمّاها إلى الجحفة»** [رواه البخاري ٤/ ٩٩].

قال النووي: «قال الخطابي وغيره: كان ساكنوا الجحفة في ذلك الوقت من اليهود، ففيه دليل للدعاء على الكفار بالأمراض والأســقام والهلاك، وفيه ندب للدعاء للمســلمين بالصحة والبركة، وفيه أيضاً أن هذا الحديث مـــن أعلام نبوته ﷺ، فإن الجحفة منذ أن دعا عليها النبي ﷺ مجتمة ولا يشرب أحد من مائها إلا حُمّ ومرض»(١).

ومن بركة المدينة ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ كما ســيكون في آخر الزمـــان من خروج جيش من المدينة لقتـــال الروم وهم خيار أهل الأرض، ويتم من هذا الغزو فتح القسطنطينية، وقد أشرت إلى ذلك سابقاً عند شرح حديث: **«لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق أو بدابق»**.

ولـــو لم يكن لأهلها مزية و مزيد شـــرف لما ذكرهـــم النبي ﷺ ومدح جيشهم بأنه روقة الإسلام، وأنهم أهل الحجاز، وأنه خير جيش على وجه الأرض في ذلك الزمان.

ومن الفضائل الصبر على لأواء المدينة وشدتها، فقد روي عن عمر بن الخطـــاب ـ رضي الله عنه ـ حديثاً مرفوعاً: **«فمن صبر على شـــدتها ولأوائها كنت له شـــفيعاً يوم القيامة»** [رواه البزار، قال المنذري إسناده جيد، وقال الهيثمي روى ابن ماجه طرفاً منه ورجاله رجال الصحيح].

قال الآبي: «الحديث خرج مخرج الحث على سكناها، فمن لزم سكناها ولـــم يلحقه لأواء دخل في ذلك، لأن التعليل بالغالب والمظنة فيه التخلف عن بعض الصور كتعليل القصر بمشـــقة الســـفر، فإن الملك يقصر ولو لم

---

(١) ذكره الإمام النووي في شرح صحيح مسلم ٥/ ١/ ١٥٩ .

تلحقه مشقة لوجود السفر».

ومن فضائل المدينة الحث على الموت فيها فقد روى عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من استطاع أن يموت في المدينة فليفعل فإني أشفع لمن مات بها**» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه من حديث أيوب السختياني وحسنه البغوي وصححه أحمد شاكر والألباني.

وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ» [أخرجه البخاري ٤/ ١٠٠ (١٨٩٠)].

ومن خصائص أهل المدينة أن من أراد أهلها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء، أخبر بذلك رسول الله ﷺ كما في رواية مسلم في الصحيح.

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أخاف أهل المدينة فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله فيه صرفاً ولا عدلاً**» [إسناده صحيح].

ومن خصائص المسجد النبوي أن النبي ﷺ قال في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي**».

قال النووي: قال القاضي: قال العلماء: المراد منبره بعينه الذي كان في الدنيا وهذا هو الأظهر.

وفي رواية لابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والبيهقي: «**ما بين قبري ومنبري**»[(١)].

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٤١٩ (١١٧٠٥) السنة لابن أبي عاصم (٢/ ٣٣٩) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢٤٦).

وقد ذكر العلماء في معنى الحديث قولين:

أحدهما: أن ذلك الموضع بعينه ينقل إلى الجنة.

واالثاني: أن العبادة فيه تؤدي إلى الجنة.

قال الطبري في المراد بـ«بيتي» هنا قولان:

أحدهما: القبر، قاله زيد بن أسلم، كما روي مفسراً: **«بين قبري ومنبري»**.

والثاني: أن المراد بيت سكناه على ظاهره، وروي: **«ما بين حجرتي ومنبري»**.

ثم قال الطبري: والقولان متفقان؛ لأن قبره في حجرته وهي بيته ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وهنا لا يفوتنا أن نذكر فضل الصلاة في المسجد النبوي، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»** [متفق عليه].

وقد تواتر عنه ﷺ أحاديث كثيرة في فضل الصلاة في مسجده ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالأسانيد الصحيحة ما يقرب عن عشرين صحابياً.

وهل الفضل مختص بصلاة الفريضة؟

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «واعلم أن مذهبنا لا يختص بالصلاة في هذين المسجدين، بل يعم الفرض والنفل جميعاً»[(1)].

وبه قال مطرف من أصحاب مالك.

وقال الطحاوي: «يختص بالفرض، وهذا مخالف لإطلاق الأحاديث الصحيحة والله أعلم، ومما ورد عنه ﷺ في بركة المدينة ما جاء في فضل

---

(1) شرح صحيح مسلم (٥/ ١/ ١٧٣).

الصلاة في مسجد قباء، وأن الصلاة فيه تعدل عمرة، فعن أسيد بن طهير الأنصاري ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: **«صلاة في مسجد قباء كعمرة»** [رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الحاكم][1]. وقال الترمذي: حديث أسيد حديث حسن غريب، ولا نعرف له شيء يصح غير هذا الحديث، ولا نعرفه إلا من حديث أبي أسامة عن عبد الحميد جعفر «أبو الأبرد» اسمه زياد مديني وتعقبه الحافظ في «تهذيب التهذيب»[2] بأن أبا الأبرد لا يعرف اسمه، قال: وكأنه اشتبه عليه بأبي الأبرد الحارثي فإن اسمه زياد.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه إلا أن أبا الأبرد مجهول.

وضعف الحديث أبو البكر بن العربي في «العارضة»[3] والذهبي في «الميزان»[4].

إلا أن هذا الحديث له شواهد تشد أزره، وقد صححه النووي والألباني وغيرهما.

وعن سهل بن حنيف ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من خرج حتى يأتي هذا المسجد ـ يعني مسجد قباء ـ فيصلي فيه كان كعدل عمرة»**[5].

ومن فضائل المدينة وبركتها وجود جبل أحد فيها فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«هذا جبل يحبنا ونحبه»**.

(١) الترمذي (٣٢٤) وابن ماجه (١٤١١) المستدرك (١/ ٤٨٧).

(٢) تهذيب التهذيب (٣/ ٣٩١).

(٣) عارضة الأحوزي (٣/ ١٢٢).

(٤) ميزان الاعتدال (٢/ ٩٦).

(٥) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم.

وجاء في معنى قوله ﷺ: **«أحد جبل يحبنا ونحبه»**.

قال الحافظ في «المنتخب»: الصحيح المختار أن معناه أن أحد يحبنا حقيقة، وقد جعل الله فيه تمييزاً يحب به، كما حن الجذع اليابس، وكما سبح الحصى، وكما فر الحجر بثوب موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ[1].

وفيما جاء في فضل شهداء أحد أن الرسول ﷺ زارهم وقال: **«هذه قبور إخواننا»**[2].

ومما جاء في بركة المدينة وفضلها ما جاء في الصحيحين من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه، أو كانت له قرحة أو جرح، أرشده النبي ﷺ أن يضع سبابته بالأرض ثم يرفعها ويقول: **«بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا ليشفى به سقيمنا بإذن ربنا»**[3].

قال القرطبي: في هذا الحديث دلالة على جواز الرقى من كل الآلام وأن ذلك كان أمراً معلوماً بينهم.

قال النووي: **«تربة أرضنا»** والمراد أرض المدينة ضامنة لبركتها **«وبعضنا»** لشرف ريقه ﷺ، ويكون ذلك مخصوصاً.

قال الحافظ ابن حجر: وفيه نظر.

قال ابن القيم: هل المراد بقوله: **«تربة أرضنا»** جميع الأرض أم أرض المدينة خاصة؟ فيه قولان. وقال: ولا ريب أن من التربة ما يكون فيه خاصية ينفع الله بخاصيته من أدواء كثيرة، ويشفي بها أسقاماً رديئة، فما الظن بأطيب تربة على وجه الأرض وأبركها، وقد خالطت ريق رسول الله

---

(١) المنتخب صـ ٤٩.

(٢) مسند أحمد ١/ ١٦١، سنن أبي داود ٢/ ٥٣٥.

(٣) صحيح مسلم (٥٤).

ﷺ فاقترنت رقيته باسم ربه وتفويض الأمر إليه [١].

وذهب البيضاوي: إلى أن مقصود قوله «تربة أرضنا» العموم فقال: شهدت المباحث الطبية على أن للريق مدخلاً في النضج وتعديل المزاج، وتراب الوطن له تأثير في حفظ المزاج ودفع الضرر بإذن الله، وقد ذكر أن المسافر ينبغي عليه أن يأخذ شيئاً من تراب أرضه إن عجز عن اصطحاب مائها [٢].

ومما ورد في بركة المدينة ما جاء في عجوة المدينة، فقد روي عن سعد ابن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«من تصبح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر»** [٣].

قال الجوهري في الصحاح: العجوة ضرب من أجود التمر بالمدينة ونخلتها تسمى لينة [٤].

وقال الأزهري: العجوة التي في المدينة هي الصيحانية ولها ضروب من العجوة ليس لها عذوبة الصيحانية ولا ريها ولا امتلاؤها [٥].

وقيل لأحيحة بن الجلاح: ما أعددت للشتاء؟ قال: ثلاثمائة وستين صاعاً من عجوة تعطي للصبي منها خمساً فيرد عليك ثلاثاً.

ووصف ابن القيم العجوة فقال: هي أحد أصناف التمر بالمدينة، ومن أنفع تمر الحجاز على الإطلاق، وهو صنف كريم ملذذ متين الجسم والقوة، من أطيب التمر وألينه وألذه [٦].

---

(١) الطب النبوي (١٤٥).

(٢) الطب النبوي ١٠ / ٢٠٨ .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) الصحاح للجوهري (٦/٢٤١٩) .

(٥) لسان العرب (١٥/٣١) .

(٦) الطب النبوي صـ ٢٦٣ .

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ: ومن أنفع علاجات السحر الأدوية الإلهية، بل هي أدوية نافعة بالذات، فإنه من تأثيرات الأرواح الخبيثة السفلية، ودفع تأثيرها يكون بما يقاومها ويعارضها، ويقاومها من الأذكار والآيات والدعوات التي تبطل فعلها وتأثيرها، وكلما كانت أقوى وأشد كانت أبلغ في الشدة، وذلك بمنزلة التقاء جيشين مع كل واحد منهما عدته وسلاحه، فأيهما غلب الآخر قهره وكان الحكم له[1].

قلت: وبركة المدينة وفضائلها لا تنتهي ولا تنقضي، وبركتها إنما جاءت بفضل دعوة هذا النبي الذي هاجر إليها وأسس فيها حصناً متيناً لهذا الدين، وكانت المدينة بحق منطلقاً للدعوة والجهاد ومأرزاً للإيمان وتأليفاً للقلوب، وكانت ولا تزال مهوىً للقلوب الخاشعة والألسن الذاكرة والجباه الساجدة.

وصلى الله على نبينا وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) الطب النبوي (١٠٠ / ١٠١).

الخاتمة

وبعد استعراض هذه الأحاديث وشرحها يجدر بنا أن نعلم أن الإيمان بأشراط الساعة من الأمور الغيبية التي لا يتم الإيمان بدونها، وأن ما ثبت عن الرسول ﷺ من الأحاديث والأخبار يجب الإيمان بها وعدم ردها، وهي من العقائد التي يدين المؤمن لله ـ تعالى ـ بها.

وأن الرسول ﷺ قد أخبر أمته بأمور كانت وحصلت في السابق، وأخبرها كذلك بأمور ستكون قبل قيام الساعة، وأن بعضها ظهر، مثل كثير من أشراط الساعة الصغرى وعلاماتها، وبعضها لا زال وسوف يظهر في المستقبل كما أخبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهي من معجزات النبي ﷺ ومن أعلام نبوته، حيث أخبر عن أنباء ستقع ووقع الأمر كما أخبر به ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وما لم يقع سوف يكون طبق ما أخبر عنه ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

وقد ظهر كثير من أشراط الساعة وتحقق ما أخبر به النبي ﷺ من دلائل نبوته وآيات صدقه الباهرة، وهذا مما يزيد في الإيمان بأن الرسول حق، وأن ما جاء به حق من عند الله ـ عز وجل ـ.

وتأتي أهمية الحديث عن هذه الأمور الغيبية في وقت أخذ فيه الكثير بالتشكيك في ظهورها.

هذا وأسأل الله ـ تعالى ـ قبول هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يجعله لي ذخراً يوم ألقاه، إنه جواد كريم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

خالد بن عبد الله الزرير

١٩/١٠/١٤٣٠هـ

المراجع

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ صحيح الإمام البخاري وشرحه فتح الباري.

٣ ـ صحيح الإمام مسلم (شرح النووي).

٤ ـ سنن الترمذي.

٥ ـ مسند الإمام أحمد.

٦ ـ أشراط الساعة لـ (يوسف الوابل).

٧ ـ البداية والنهاية لـ (ابن كثير).

٨ ـ الإعجاز العلمي في السنة النبوية لـ (د. زغلول النجار).

٩ ـ النهاية في الفتن والملاحم لـ (ابن كثير).

١٠ ـ معجم البلدان لـ (ياقوت الحمودي).

١١ ـ المنهاج لـ (الحليمي) .

١٢ـ التذكرة لـ (الأمام القرطبي).

١٣ ـ فقه أشراط الساعة لـ (محمد بن إسماعيل المقدم).

١٤ـ إتحاف الجماعة لـ (الشيخ حمود التويجري).

١٥ ـ موسوعة أحاديث الفتن وأشراط الساعة لـ (د. همام عبد الرحيم ود. محمد همام عبد الرحيم).

١٦ ـ الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

١٧ـ شبكة الإسلام أون لاين نت.

١٨ ـ أحاديث الفتن باب ملاحم الروم «لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق». شرح الشيخ عبدالرحمن البراك مسجد شيخ الإسلام ابن تيمية.

١٩ ـ كتاب فقد جاء أشراطها لـ (محمود عطية).
٢٠ ـ المسيح المنتظر ونهاية العالم لـ (عبد الوهاب طويلة).
٢١ ـ موقع الشيخ سفر الحوالي.
٢٢ ـ جامع الأصول لـ (ابن الأثير).
٢٣ ـ فتاوى الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ.
٢٤ ـ موقع الشيخ عبد الله الجبرين ـ رحمه الله ـ.
٢٥ ـ المناسك مع حاشية الإيضاح للنووي.
٢٦ ـ الدرر الثمينة في خصائص المدينة لـ (د. محمد الأهدل).
٢٧ ـ بذل الماعون في فصل الطاعون لـ (ابن حجر).
٢٨ ـ مصنف ابن أبي شيبة.
٢٩ ـ المستدرك لـ (الإمام الحاكم).
٣٠ ـ الطب النبوي لـ (الإمام ابن القيم).
٣١ ـ الصحاح لـ (الإمام الجوهري).
٣٢ ـ لسان العرب لـ (ابن منظور).

الفهرس